صفات عباد الرحمن

٨ - اجتناب الزنا

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن ، ومع عباد الرحمن ، الذين رضي الله تعالى عنهم ورضوا عنه .

تحدّثنا عن (عباد الرحمن) وأخلاقهم وأوصافهم ، في ليلهم ونهارهم ، مع أنفسهم ومع ربهم ومع النّاس .

تحدّثنا عن صفاتهم إذا مشوا على الأرض هونا ، تحدّثنا عن معاملتهم مع من جهل عليهم ، تحدّثنا عن أخلاقهم في مالهم إذا أنفقوا ، ثمّ تحدّثنا عنهم في صفاتهم الأخرى ، حينما حرّروا أنفسهم من كلّ ما يُسخط الله تبارك وتعالى ، حينما ساروا على منهج مستقيم يخالفون به مناهج الكفر والنفاق ، فليسوا ممّن يشرك بالله شيئًا ، ولا ممّن يستهين بحياة البشر .

واليوم نتحدّث عن صفة أخرى داخلة في المنهيّات ، وهي اجتناب الزنا ، فعباد الرحمن ﴿ .. لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً . . . ﴾[1] .

أيها الإخوة :

حافظ الإسلام على الدين والعقيدة ، فحرّم الشرك أكبره وأصغره ، جليّه وخفيّه ، وحافظ الإسلام على النفس ، فحرّم القتل وكلّ ما يؤذي النفس .

وحافظ الإسلام على العرض وعلى النّسب ، فحرّم الزنا ، وكان من صفات عباد الرحمن : أنهم لا يزنون ، لا يتورّطون في هذه الكبيرة التي نهى اللهّ تعالى عنها

---

(١) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

حينما قال : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى ﴾ [أي لا تزنوا ولا تفعلوا ما يؤديّ إلى الزنا] ، ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ (١) .

ومن هنا نهى الإسلام عن الزنا ، ونهى عن كلّ ذريعة توصّل إليه أو تقرّب منه ، فحرّم الخلوة بالمرأة الأجنبيّة ، وحرّم النظرة بشهوة ، وحرّم التبرّج بالزينة ، وحرّم من الوسائل كلّ ما يغري النّاس بالفاحشة ، ما ظهر منها وما بطن ، وعمل على تطهير البيئة الإسلاميّة من أسباب الإغراء والفساد ، حتى يحصّن الفتى المسلم والفتاة المسلمة ، فليس من الإسلام أن تترك البيئة تغرى بالإثم وتغري بالفاحشة ، وتضع الشاب - أو الشابّة - فى اللّهب ، ثمّ تقول له : لا تحترق .

جاء الإسلام ينهى عن كلّ ما يؤدى إلى الزنا ، فبدأ بتربية الفرد على أن يعفّ نفسه .. أن يحصّن فرجه .. أن يغضّ بصره ، سواء كان رجلاً أو امرأة ، يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلاَ يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا ، وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ .. ﴾ (٢) إلى آخر الآية الكريمة .

أمر الإسلام المسلم أن يستعفّ حتى يجد القدرة على الزواج الحلال : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ .. ﴾ (٣) ومن يستعفّ يعفّه الله ، ومن يتصبّر يصبّره الله .

وأمر الإسلام أن تطهّر البيئة من كل ما يغري بالفواحش ، فلا يجوز أن تظهر في المجتمع المسلم صورة عارية أو شبه عارية ، أو أغنية ماجنة ، أو أدب مكشوف ، أو قصّة داعرة ، أو تمثيليّة فاجرة ، أو شيىء من هذا الذي نراه في مجتمعاتنا اليوم .

لا يجوز أن يظهر في الشارع المسلم لحم رخيص يعرض في الأسواق ، ويُغري الشباب بالإثم ، لا يجوز أن يكون هذا في مجتمع مسلم .

حرّم الإسلام الزنا واعتبره من كبائر الإثم ، حرّمه لماذا ؟ حرّمه الله تعالى لمصلحة النّاس ، ليس لله حاجة في أن يحلّل أو يحرّم ، إنّ الله لا تنفعه طاعتنا ولا تضرّه معصيتنا ، وإنّما يحلّل الطيبّ ويحرّم الخبيث ، يبيح النافع ويحرّم الضار ،

---

(١) الإسراء : ٣٢ . (٢) النّور : ٣٠ ، ٣١ . (٣) النور : ٣٣ .

يحلّ لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث ، فإذا حرّم الزنا فإنّما هو لحماية الإنسان .. لتزكية الإنسان .. للسموّ بالإنسان . إنّه يريد أن يحمى إيمان المؤمن ، فلا يكون عبداً إلاّ لله تبارك وتعالى ، لا عبداً للغريزة ، ولا عبداً للشهوة ، ولا عبداً لامرأة ، ولا عبداً لشيىء ، إلاّ أن يكون عبداً لله تبارك وتعالى .

حرّم الإسلام الزنا ليبقى المؤمن خالصاً لله ، لا لشيىء آخر ، ومن هنا جاء الحديث عن النبى ﷺ في الصحيحين : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن .. » [1] ، لأنّه في حالة الزنا يُنزع منه الإيمان ، فالإيمان سربالٌ يسربله الله من يشاء [2] ، فحينما يزني ينخلع عنه هذا السربال ، ويكون عليه كالظلّة - كما جاء في الحديث [3] - فإذا قلع وتاب رجع إليه سربال الإيمان .

إنّه يريد أن يحمي المؤمن ، ويريد أن يحمي أخلاقه ، لا يريد أن يكون المؤمن كالحيوان يفعل ما يشتهي ، بل يفعل ما ينبغى ، إنّما سمّى (العقل) عقلاً ، لأنّه يعقل الإنسان ويقيّده - كالعقال أو القيد - فيجعله يُفكّر قبل أن يُقدم على الأمر .

أمّا الذين يفعلون ما تحلو لهم أنفسهم ، وما تزيّن لهم شهواتهم ، وما توسوس لهم شياطينهم ، دون أيّ رادع أو زاجر ، فقد انخلعوا من الإنسانيّة إلى الحيوانيّة .

الحيوان الهابط هو الذي يفعل ما يشتهي ، أمّا الإنسان العاقل فهو الذي يفعل

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه ، وتتمّته : « ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » وزاد مسلم في رواية ، وأبو داود : « ولكنّ التوبة معروضة بعد » وفى رواية النسائى : « فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ، فإن تاب تاب الله عليه » ، قال الشيخ القرضاوى معلّقاً على الحديث : نفي الإيمان هنا يعنى نفى الكمال لا نفي الأصل ، وذلك لتتفق النصوص بعضها مع بعض ، ولتتفق مع الواقع أيضاً ، فالإيمان لا يزول بالكلّية بمجرّد الوقوع في المعصية ، واللغة تتسع لهذا التأويل بغير تكلّف ، أنظر : (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥١ برقم (١٣٩٩) .

(٢) أي : قميص يُلبسه الله من يشاء .

(٣) الذي أخرجه أبو داود ، والحاكم بسند صحيح كما قال الحافظ ابن حجر في الفتح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ونصّ : « إذا زنى أحدكم خرج منه الإيمان وكان عليه كالظلّة ، فإذا انقلع رجع إليه الإيمان » . أنظر : (شرح السنّة للبغوي : ١ / ٩٠) .

ما ينبغي ، ومن هنا يريد الإسلام للمسلم أن يرتقي بإنسانيته ، فلا يكون كالحيوان الذي تسيّره الغريزة .

لقد انتهت الغريزة بأقوام من الناس إلى أن أصبحوا يتسافدون في الطرقات ، كما تتسافد الحمير والبهائم ، لا يتورّعون عن شيىء ، ولا يخجلون من شيىء .

وأصبحت هذه المناظر تُباح في صحف ومجلاّت ، وتعرض في أفلام ومسلسلات في بلاد شتّى ، وهناك من الناس - للأسف - من يُدخل هذه الأفلام وهذه المجلاّت - اختلاساً وسرقة - إلى مجتمعات المسلمين .

أصبحت التجارة بالجنس تجارة رابحة في كثير من البلدان ، تُباع بالملايين وعشرات الملايين ، وأكثر ما تُصدّر تُصدّر إلى ما يسمّونه (البلاد النامية) لإفسادها وتدميرها ، وإفساد شبابها ورجالها وبناتها .

هناك أفلام وصور ومجلاّت مُحرّمة في ديارها وعلى أهلها ، ولكنّها تُصدّر من أوربّا وغيرها إلى بلاد شتّى ، وأثبتت الإحصاءات أنّهم يكسبون من ورائها عشرات الملايين ، ومئات الملايين .

الإسلام يريد أن يحمي إيمان المسلم ، ويحمي أخلاقه ، ويريد أن يحمي صحّته أيضاً ، فإنّ هذه الغريزة إذا أُطلق لها العنان ، أصبح الإنسان لا يتورَّع عن شيىء ، إنّه يغدو ويروح حيث شاء ، يتنقّل كما يحلو له ، فكلّ يوم مع امرأة أو مع فتاة ، والفتاة كلّ يوم مع شاب أو مع رجل .

وهكذا تُوجد الأمراض التناسليّة ، وتتعرّض الصّحة للخطر ، وتنتقل العدوى كما تنتقل النّار في الهشيم .

وقد ظنّ هؤلاء النّاس يوماً أنهم استطاعوا أن يقاوموا الأمراض الجنسيّة كالزهري [1] ، والسيلان [2] ، وغيرهما من الأمراض القديمة ، فجاءت لهم أمراض

(١) هذا المرض تُسبّبه جرثومة تقوم بخرق الجلد في منطقة ضعيفة ، وتنتقل من مريض إلى آخر أثناء الاتصال الجنسي المحرّم ، ثمّ تظهر أولى علامات المرض على شكل قرحة ، ويصبح المرض في تلك الحالة معدٍ جدًّا ، وتستمرّ مدّة العدوى لتصل أحياناً إلى خمس سنوات .

(٢) وهو من أكثر الأمراض المعدية انتشارا ، ويُعدّ من أهمّ الأسباب التي تؤدى إلى العقم ، ونسبة كبيرة من النساء المصابات به لا تظهر عليهنّ علامات هذا المرض ، في حين أنّهنّ معديات جداً لكل من يتصل بهنّ جنسيًّا ، أمّا أعراضه عند الرجل فتبدأ بألم في الإحليل ، يتبعه سائل صديدي أصفر يبدأ بالتقاطر من فتحة القضيب ، ويشعر المريض بضيق وحرقان عند التبول .

حديثة ما كان لهم بها من علم ، وما توقّعوا أن يحدث مثلها ، فوقفوا أمامها حيارى عاجزين .

مرض (الهربيس) : مرض انتشر في أوربا وأمريكا ، حتى أعلنت بعض المجلاّت المتخصّصة التي تُعنى بمثل هذه الأمور : أنّ خمسة وعشرين مليوناً في أمريكا وأوربا مصابون بهذا المرض ، الذى يُفقد الجسم المناعة ، فلا يعود يقاوم مرضا ، فقد وضع الله في الأجسام من التحصينات ما يمنعها من غزو الأمراض الخبيثة والمعدية ، وضع الله (عساكر) في داخل الجسم البشري تحمي الإنسان من الغزو الخارجى .

هذا المرض يُفقد الجسم هذه المناعة وهذه الحصانة ، فلا يقدر على مقاومة مرض من الأمراض ، وإذا أصيب بأىّ شيىء سقط ، هذا المرض يجعل الإنسان يفكّر في الانتحار ، ويرغب في التخلّص من البقاء [1] ، هذا المرض له مظاهر وأعراض شتّى [2] ، يشعر صاحبه بحالة مثل حالات البَرصَ .

وهناك - كما ذكر العلماء - ثمانية وعشرون نوعاً من أنواع الأمراض الجنسيّة والتناسليّة ، آخرها وأخطـرها المرض الذي يسمّونه (الإيدز) [3] ، وهو يصيب

---

(١) أو يتمنّى أن ينتقل مرضه إلى أكبر عدد من الناس نتيجة الحقد والقلق والهلع .

(٢) تبدأ أعراضه عند الرجال بالشعور بالحكّة ، فتتهيّج المنطقة ، ثمّ تظهر البثور والتقرحات على القضيب ، وعلى منطقة الشرج عند الذين يُفعل بهم الفاحشة ، ثمّ تكبر البثور ويزداد ألمها وتتآكل فتلتهب ، وربما يمتد الإلتهاب إلى الفخذ والعانة ، فتتضخم الغدد الليمفاوية وتصبح مؤلمة جداً ، أمّا عند المرأة فيأخذ هذا المرض أشكالاً خطيرة ، حيث يتهيجّ الفرج والمنطقة المحيطة به ، كما يلتهب عنق الرحم التهابًا شديداً ، ويسبب ألماً حادًّا .

(٣) ممّا يذكر للشيخ القرضاوى : أنّه نبَّه على خطورة هذا المرض منذ بداية ظهوره ، وقبل انتشار الحديث عنه ، و (الإيدز) حروف للكلمات تدلّ على مرض هو : (نقص المناعة الطبيعّية والمكتسبة لدى الإنسان) ، والأسباب الرئيسية لانتقال فيروس هذا المرض هي : الشذوذ الجنسى ، والزنا ، والمخدرات عن طريق استعمال حقن المصابين ، أمّا أعراضه فكثيرة منها : إنهاك شديد يستمرّ عدّة أسابيع دونما سبب معروف ، تضخّم في الغدد الليمفاويّة ، نقص شديد في الوزن ، ارتفاع في درجة الحرارة ، سُعال جاف ، صعوبة في التنفس ، التهابات في الفم والحلق ، إسهالات شديدة ومزمنة ، ظهـور الإنتانات الانتهازيّة التي تكون السبب المباشر للموت ، وليس كل من أصيب بفيروس (الإيدز) تظهر عليه أعراض المرض ، وإن أصبح مُعديا لغيره ، بل نسبة الذين تظهر عليهم أعراضه قليلة جداً إذا ما قُورنت بالذين لا تظهر عليهم ، وهنا يكمن الخطر .

الزناة والزانيات ، كما يصيب الذين يُصابون بالشذوذ الجنسيّ من الرّجال أو النّساء .

هذه الأمراض الخطيرة سلّطها الله على النّاس ، جزاء خروجهم عن الفطرة التي فطر الناس عليها ، وجاءت بها النبوّات والرسالات جميعا ، هذه الفطرة : أن يختصّ الرجل بامرأة عن طريق الزواج ، ليكوّنا الأسرة التي هي نواة المجتمع .

عاقبهم الله بهذه الأمراض ، وهذا ما حذّر منه النبي ﷺ حينما قال في حديث ابن عمر : « يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهنّ ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ (وكانت أولى هذه الخصال) : لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يُعلنوا بها إلاّ فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا .. »[1] .

أنظروا : كأنّ النبي ﷺ ينظر من وراء الغيب إلى هذا العصر الذي نعيش فيه ، ويخبر بما وقع .

« لم تظهر الفاحشة في قوم قطّ حتى يعلنوا بها » : الفاحشة موجودة من قديم الدهر ، وليس الخطر في وجودها ، إنّما الخطر في انتشارها .. إنّما الخطر في ظهورها علانية ، ولا يُنكر المُنكَر ، كما نرى ذلك في البلاد الغربيّة ، وكما نرى بعض شرره يتطاير إلى بعض البلاد الإسلاميّة ، والناس سكوتٌ غافلون . « إلاّ فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا » : والعجيب أنّ الغربيّين يسمّون (الإيدز) الطاعون الأبيض ، فهو من الأوجاع الحديثة .. لم تكن الأجيال السابقة تعرف هذه الأمراض ، ورغم تقدّم الطب وتقدّم العلم وتقدّم التكنولوجيا ، لم يستطيعوا أن يجدوا لهذه الأمراض دواء .

وستظهر أمراض وأمراض مادام النّاس يحيدون عن منهج الله الذي رسمه لعباده ، وفيه الخير كلّ الخير .

الإسلام حينما حرّم الزنا حرّمه لمصلحة الإنسان الفرد ، وحرّمه لمصلحة الأسرة .. لتتكونّ الأسرة .. لتوجد هذه الخليّة .. ليوجد هذا الأساس لبناء

---

(١) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبزارّ والبيهقي بنحوه ، ورواه الحاكم وصححّ إسناده ، ووافقه الذهبى ، أنظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ٣٩٩ ، ١٤٣٣) .

المجتمع ، لينسدّ الطريق أمام الإنسان فلا يجد تفريغاً لشهوته إلاّ في الطريق الحلال .

لم يكن الإسلام ضدّ الغريزة الجنسيّة ، ليست نظرة الإسلام كنظرة بعض الأديان الأخرى التي تعتبر الغريزة الجنسيّة في ذاتها نجساً ، أو رجساً من عمل الشيطان .

الغريزة ركبّها الله في الإنسان لحكمة ، لتكون سوطاً يسوق النّوع البشري إلى طلب النّسل .. إلى الزواج ، لتعمر الأرض ، ويستمرّ بقاء هذا النوع إلى ما شاء الله تبارك وتعالى .

لكلّ غريزة من الغرائز التي جُبل عليها الإنسان حكمة ، وهذه الغريزة النوعيّة أو الجنسيّة - أي التي من ورائها بقاء النّوع والجنس - لم يقف الإسلام ضدّها على طول الخط ، لا ، ولم ير إطلاق العنان لها على طول الخط ، كما ترى المذاهب الإباحيّة وفلسفات هذا العصر الماديّة والحسّيّة .

وإنّما يرى الإسلام أن توضع هذه الغريزة حيث أراد الله تعالى وحيث أمر الله ، وأن يبحث الإنسان عن طريق الحلال بالزواج ، لتنشأ الأسرة المسلمة التي تتكوّن في ظلالها عواطف المحبّة والأخوّة والإيثار والتعاون ، ومنها ينشأ المجتمع الصالح .

ومن هنا حرّم الإسلام الزنا وأباح الزواج ، حرّم السّفاح وشرع النكاح ، حتى أنّ بعض علماء المسلمين يعتبرون الزواج فريضة على القادر : « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوّج ، فإنّه أغضّ للبصر وأحصن للفرج .. »[1] وهذا أمر من رسول الله ﷺ ، والله تعالى يقول : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِنَ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِه .. ﴾[2].

حمى الإسلام الأسرة ، وحمى الأنساب أن تختلط ، فإنّه إذا أبيح الزنا لا يعرف المرء : أحملت زوجته منه أم حملت من غيره ؟ أهذا الذى يربّيه ابنه أم ابن

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، واللفظ لهما ،وأبو داود ، والترمذى ، والنسائي ، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه ، وتتمّته : « ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنّه له وجاء » والباءة ما يلزمه من القدرة على مؤن الزواج ونفقاته (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٤٩ - ٥٥٠ برقم ١٠٩٥) .

(٢) النّور : ٣٢ .

رجل آخر ؟ وبذلك يقع الشكّ ، وتُفقد الثقة من الناس ، ولهذا قال النبى ﷺ : « لا تزال أُمتى بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشك أن يعّمهم الله بعذاب » [1] ، إذا فشا أبناء الحرام هنالك تختلط الأنساب ، وفي هذا دلالة على أنّ الأمّة قد تفكّكت عراها ، وتمزّقت روابطها ، وانتشرت الخيانة الزوجيّة .

الإسلام حرّم الزنا حماية للفرد ، وحماية للأسرة ، وحماية للمجتمع كلّه ، حتى يكون مجتمع طهارة ونقاء ، لا تشغله الشهوات عن الواجبات ، ولا يركض وراء الغرائز ، وإنّما يتبع نداء العقول ، إنّه مجتمع إنسانّى وليس بمجتمع حيوانىِ ، كتلك المجتمعات التي يظنّون أنّها راقية ، وهي اليوم تشكو ممّا أصابها ، الجمعيات الطبيّة تصرخ وتنادي : انقذوا المجتمع .. انقـذوا الصّحّة .. انقـذوا الأخلاق من الانهيار ، بعد أن أبيحت الشهوات وعبّ النّاس منها ما شاؤوا .

كان بعض النّاس في بعض الأوقات يقولون : ما هذا التعقيد ؟ ما هذه القيود ؟ اتركوا للناس الحرّيّة ، افتحوا النوافذ ، دعوا الرجل يستمتع بالمرأة ، ودعوا المرأة تستمتع بالرجل ، حلّوا العقد ، ما هذا الكبت ؟ وما هذه القيود والعراقيل ؟ إنّكم لو فعلتم ذلك انحلّت العقدة ، ولم يعد هناك كبتٌ ولم تعد هناك شكوى !! .

فهل هذا صحيح ؟

إنّهم فعلوا ذلك ، إنّهم تركوا الحبل على غاربه للفتى والفتاة ، تختار رفيقها ويختار رفيقته ، لم يعودوا يحرّمون شيئًا ، فهل حلّوا العُقدة؟هل عولجت المشكلة ؟ أم ازدادت تعقيداً ؟ .

أجل ، ازدادت - والله - تعقيداً .

لم تحلّ المشكلة ، كم من فتى عندهم يبحث عن فتاة فلا يجد ، لأنَّ الفتاة تبحث عن الأجمل أو الأقوى أو الأغنى أو الأهمّ ، ولكنّ الأضعف قوة ، أو الأدنى منزلة ، أو الأفقر مالاً ، أو الأقلّ وسامة ، لا يجد من ترضى به ، فماذا يصنع ؟ .

إنّه يعيش في كبت وقلق وحيرة وأسى ، قد يؤدّي به إلى الانتحار .

والفتاة غير الجميلة وغير الشّابّة لا تجد من يرضى بها ، فماذا تفعل ؟ والفتاة

---

(١) رواه أحمد وإسناده حسن ، من حديث ميمونة رضي الله عنها ، ورواه أبو يعلى والطبرانى بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥٨ ، الحديث ١٤٢١) .

الجميلة الوسيمة يتهافت عليها الشباب ، ويقاتل بعضهم ، حتى إنّهم ليخطفونها وقد يقتلونها إذا لم يظفر أحدهم بها !

لم يحلّ القوم المشكلة ، إنّهم كلّما ازدادوا شُرباً ازدادوا عطشاً ، إنّها مصيبة لا تحلّ إلاّ بالحلّ الإلهى .. إلاّ بالزواج .. إلاّ بالأسرة ، هذا هو حلّ الإسلام : النكاح لا السّفاح .

البلاد التي فيها حرّيّة الحبّ ، أو الحرّيّة الجنسيّة - كالسويد والنرويج وغيرها - هي أكبر البلاد نسبةً في الانتحار ، ومعظم أسباب الانتحار من هذه النواحي .

بلاد بلغت القّمة في الناحية الماديّة والضمانات الاجتماعيّة ، للطفل - هناك - منذ أن يُولد إلى أن يموت ضمانات : للأمومة ، والولادة ، والشيخوخة ، والمرض ، والحوادث ، وغير ذلك ، فلماذا ينتحرون ؟!

إنّهم فقدوا الإيمان ، وفقدوا الأخلاق ، فلم يركنوا إلى ركن ركين ، ولا إلى حصن حصين ، فلأدنى شيىء يتهاوون وينتحرون .

الإسلام حفظ المجتمع من هذا ، جاء عن ابن عباس أنّ النبي ﷺ قال : « إذا ظهر الزنا والرّبا في قرية فقد أحلّوا بأنفسهم عذاب الله » (١) .

« الزنا » : إشارة إلى فساد الحياة الخلقيّة .

و « الربا » : إشارة إلى فساد الحياة الاقتصاديّة .

من هنا ينبغي أن يتّبع النّاس منهج الله في حياتهم الخلقية ، وحياتهم الاجتماعيّة ، وحياتهم الاقتصاديّة ، وحياتهم السياسيّة ، فليس هناك أعدل من منهج الله ﴿ .. وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٢) .

لا يجوز لنا نحن المسلمين أن ندع ديننا ، ونسير وراء الغربيّين ، شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، فإذا خرجت (مُودة) من (المُودات) اتبعناها بلا عقل ، كما قال النبى ﷺ : « .. حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم .. » (٣) ، على ما في

---

(١) رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٣٥ برقم ١٠٦١) . (٢) المائدة : ٥٠ .

(٣) ونصّه كاملاً : « لتتبعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم ، قلنا يا رسول اللهّ : اليهود والنّصارى ؟ قال : فمن ؟! » متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه (شرح السّنّة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط : ١٤ / ٣٩٢ ، الحديث ٤١٩٦) .

جحر الضبّ من السوء وكراهية الرائحة والضيق والظلمة والالتواء ، لو دخلوا جحر ضبّ لصار جحر الضبّ (مُودة) يتبعها النّاس .

يا أيّها الإنسان المسلم :

احفظ فرجك ، وغضّ بصرك ، ولا تتبع خطوات الشياطين من الإنس أو الجنّ .

إنّ النّبيّ ﷺ يقول : « من يضمن لى ما بين لحييه (اللسان ، والفم ، فلا يتكلّم بحرام ، ولا يأكل حراما) وما بين رجليه (الفرج) تضمّنت له بالجنة » (١) .

ويقول : « اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنّة : اصدقوا إذا حدّثتم ، وأوفوا إذا وعدتم ، وأدّوا الأمانة إذا ائتمنتم ، واحفظوا فروجكم ، وغضّوا أبصاركم ، وكفّوا أيديكم » (٢) وهذا للمسلمين عامّة ، الرجال والنّساء ، فالمرأة كالرجل .

الزنا حرام على الرجال وعلى النّساء جميعاً ، يقول عليه الصلاة والسلام : « إذا صلّت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها : ادخلي الجنّة من أيّ أبواب الجنّة شئت » (٣) .

جاء الإسلام يطهّر المجتمع من الفاحشة ما ظهر منها وما بطن .

كانت الجاهليّة تبيح الزنا ، ولا تضع معوّقات في طريقه : الزنا العلني : كانت هناك بغايا ينصبن الرايات على أبوابهنّ ، والزنا السّرّي : اتخاذ الأخدان ، فحرّم الإسلام هذا وذاك ، وربّى الإنسان المسلم على أن يبحث عن الحلال ، فإن عجز عنه أعفّ نفسه ، ونظر إلى ظلّ العرش ، حيث هناك سبعة يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ

---

(١) رواه البخارى واللفظ له ، والترمذى ، وغيرهما ، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦١ برقم ١٤٣١) .

(٢) رواه أحمد ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححّه ، وقال الذهبى في اختصاره للبيهقى : إسناده صالح ، وقال العلائي في أماليه : سنده جيّد ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٤٧ ، الحديث ١٠٨٧) .

(٣) رواه أحمد ، والطبرانى ، من حديث عبد الرحمن بن عوف ، ورواة أحمد رواة الصحيح خلا ابن لهيعة كما قال المنذري ، وعزاه في الجامع الصغير أيضاً إلى البزار عن أنس ، والطبراني عن عبد الرحمن بن حسنة ، مع اختلاف في اللفظ ، وذكره الألبانّى فى صحيح الجامع وزيادته ، ورجح شاكرأنه منقطع ، ولكن متن الحديث صحيح كما قال القرضاوى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٦ برقم ١١١٨) .

إلاّ ظلّه - منهم : « . . ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنّى أخاف الله . . » [1] .

ومثله : المرأة التي يغريها رجل ذو منصب ووسامة ، فتقول : إنّي أخاف الله تعالى .

حرّم الإسلام الزنا ، وحرّم الإسلام كذلك الشذوذ (عمل قوم لوط) ، حرّمه القرآن ، وحرّمه النبي ﷺ .

حدثنا القرآن عن قوم لوط الذين ارتكبوا هذه الفاحشة ، وابتكروها ، ما سبقهم بها من أحد مـن العالمين [2] ، وقال لهم نبيهم : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ العَالَمِينَ ﴾ [3] .

ولعن النبى ﷺ من فعله ، كما جاء في الحديث : « لعن الله من ذبح لغير الله ، ولعن الله من غيرّ تخوم الأرض ، ولعن الله من كمّه أعمى عن السبيل ، ولعن الله من سبّ والديه . . ، ولعن الله من تولّى غير مـواليه ، ولعـن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، ولعن الله من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط » [4] ، فى هذه كررّها ثلاثاً [5] لعظم خطرها ، حتى لا ينقلب المجتمع على

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن أبى هريرة رضي الله عنه - ونصّه كاملاً : « سبعة يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله عزّ وجلّ ، ورجل قلبه معلّق بالمساجد ، ورجلان تحابّا في الله ، اجتمعا على ذلك ، وتفرّقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إنّي أخاف الله ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تتفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٢٨٧ ، الحديث ٤٥٧) .

(٢) كما قال القرآن : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِه أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] وقال : ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِه إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ العَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ٢٨] . (٣) الشعراء : ١٦٥ .

(٤) رواه النسائي ، وابن حبان في صحيحه ، ورواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، ورواه البيهقي ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وقوله « تخوم الأرض » : أي حدودها ، و « كمّه الأعـمى » : أى أضـلّه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٢ ، الحديث ١٤٣٤) .

(٥) والتكرار في الآخر من رواية النّسائي .

عقبيه ، فإن من أخطر الأشياء أن تتغيرّ الفطرة ، فيتخنَّث الرجال، ويسترجل النّساء ! « لعن الله المتشبهّات من النساء بالرجال ، والمتشبّهين من الرجال بالنساء » (١) .

ومن هنا حرّم الإسلام هـــذه الفاحشـــة ، حتى أنّ بعض الفقهـاء قالوا : يقتل الفاعل والمفعول به ولو لم يكن محصنا ، عملاً بحديث ورد في ذلك (٢) ، مع أنّ العقوبة في الزنا : أن يقتـــل - يُرجم - المحصـــن فقط ، ولكن غير المحصن يُجلد (٣) .

كما أنّ النّبىّ ﷺ حذّرنا من أمر آخـــر وقال : « هـــى اللّوطيّة الصّغرى : يعنى الرجل يأتي امرأته في دبرهـــا » (٤) ، وقال : « ملعـــون من أتى امـرأة فى دبرها » (٥) .

وقال : « استحيوا ، فإنه الله لا يستحي من الحق ، ولا تأتوا النساء في أدبارهنّ » (٦) ، فهذا حرام ملعون من فعله ، ولكنّه لا يؤدّي إلى الطلاق كما يزعم بعض النّاس .

---

(١) رواه أحمد ، **وأبو داود** ، والترمذى ، وابن ماجه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ورمز له السيوطى بالصّحّة (**الجامع الصغير** : ٢ / ١٢٤) . قال المناوي : وظاهر كلامه أنّ ذا لا يوجد مخرّجاً في أحد الصحيحين وإلاّ لما عدل عنه وهو ذهول عجيب فقد رواه سلطان هذا الشأن - **أي** الإمام البخارى - **فى صحيحه** فى اللباس عن ابن عباس ولفظه : « لعن النبى ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » ، والتقديم والتأخير ليس عذراً **في** ترك العزو إليه (**فيض القدير** : ٥ / ٢٧١ برقم ٧٢٦٥) .

(٢) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ وجدتموه يعمل عمل قوم **لوط** فاقتلوا الفاعل والمفعول به » رواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه ، والبيهقى ، والحاكم **وصحّحه** ، ووافقه الذهبى (**المنتقى** من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٢ ، الحديث ١٤٣٥) .

(٣) رأوها أشدّ من الزنا لما فيها من خطورة .

(٤) رواه أحمد ، **والبزّار** ، وصحّح الشيخ شاكر إسناده في تخريجه للمسند ، وقال الشيخ القرضاوي في **تعليقه على الحديث** : وإنّما سمّاها (لوطيّة) لشبهها بعمل قـــوم لوط من حيث استعداد مكان القذر ، **وإنّما كانت** (الصغرى) لأنّ الزوجة محلّ الاستمتاع في الجملة ، بخلاف الذكر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٣ برقم ١٤٣٨) .

(٥) رواه أحمد ،وأبو داود ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٤ ، الحديث ١٤٤٢) .

(٦) رواه أبو يعلى ، والطبراني في الكبير ، والبزّار ، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح خلا علي بن اليمان وهو ثقة كما قال الهيثمى ، من حديث عمر رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٣ ، الحديث ١٤٣٩) .

هكذا حرّم الإسلام إتيان الفواحش بكلّ طريقة من الطرق ، وفتح طريق الحلال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (١) .

الزنا حرامٌ كلّه ، ولكنّه أشدّ ما يكون حرمة إذا زنى الإنسان بحليلة جاره ، كما روى ابن مسعود في الصحيحين (٢) : سألت رسول الله ﷺ : أيّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » قلت له : إنّ ذلك لعظيم ، قال : قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : « ثمّ أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » قال : قلت : ثمّ أيّ ؟ قال : « ثم أن تزاني حليلة جارك » فأنزل الله عزّ وجلّ تصديقها : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ (٣) .

المفروض في الجار أن يكون حافظاً لحرمة جاره ، حارساً لأهله في غيبته ، لا أن يكون لصًّا يعتدي على أعراضهم .

كذلك زنا المحصن غير زنا العزب ، وزنا الشيخ غير زنا الشاب ، ومن هنا جاء في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم (٤) : « ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكّيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذّاب وعائل مستكبر » .

« شيخ زان » الشيخ الذي شاب وشاخ ولكنّه يزني ، ليست حاجته كحاجة الشاب .

« وملك كذّاب » : الناس قد يكذبون لضعف عندهم ، أو لحاجة إلى غيرهم ، فلماذا يكذب الملوك والأمراء والرؤساء ؟ إلاّ إذا كانوا يدجّلون على شعوبهم ، وفي ذلك الخطر كلّ الخطر .

---

(١) المؤمنون : ٥ ، ٦ - المعارج : ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) رواه البخاري في كتاب (التفسير) : سورة البقرة باب (٣) ، ورواه مسلم - واللفظ له - في كتاب (الإيمان) : باب (كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده) .

(٣) الفرقان : ٦٨ .

(٤) والنسّائي ، عن أبى هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥٧ - ٦٥٨ برقم ١٤٢٠) .

« وعائل مستكبر » : هو الفقير المستكبر . الغني قد يغرّه ماله فيستكبر ، أمّا الفقير المتكبّر الذي تقول له الحق فيردّه ، والذي لا يبالي بأحد ، ولا ينظر إلى النّاس إلاّ باستعلاء واستخفاف ، فهذا من أشدّ النّاس عذاباً .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا في ديننا ، وأن يتوب علينا توبة نصوحا ، وأن يغنينا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وبفضله عمّن سواه .

ادعوا الله تعالى يستجب لكم .

* *

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

حرّم الإسلام الزنا ولا شكّ ، وحرّم كلّ ما يؤدّي إليه ، ولكنّ الإسلام إذا حرّم شيئاً وضع البديل له ، فليس هناك حرام إلاّ وبمقابله حلال يُغني عنه ، ما حرّم الله على الناس شيئاً يحتاجون إليه قط ، ففي الحلال دائماً ما يُغني عن الحرام [1] .

ومن هنا حين حرّم الإسلام الزنا ، فقد شرع الإسلام الزواج ، تحصيناً للنّفس ، وكسراً للشهوة ، وإغراء للشيطان ، وتكويناً للأسرة المسلمة ، وتدبيراً للمنزل ، وتكثيراً للعشيرة ، وتحقيقاً لإرادة الله تعالى في بقاء هذا النّوع : ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً . . ﴾ [2] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [3] .

---

(١) كما بيّن ذلك ابن القيم رحمه الله في كتابيه : « روضة المحبين » و « إعلام الموقّعين » حين ذكر أنّ الله حرّم على الناس الاستقسام بالأزلام ، وعوّضهم عنه دعاء الاستخارة ، وحرّم عليهم الربا ، وعوّضهم التجارة الرابحة ، وحرّم عليهم القمار ، وأعاضهم عنه أكل المال بالمسابقة النافعة في الدين بالخيل والإبل والسهام ، وحرّم عليهم الحرير ، وأعاضهم عنه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف ، والكتان والقطن . وحرّم عليهم الزنا واللواط ، وأعاضهم عنهما بالزواج الحلال ، وحرّم عليهم شرب المسكرات ، وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن ، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات ، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيّبات .

نقلاً عن كتاب (الحلال والحرام) للأستاذ القرضاوي ص ٣٣ ، ط . المكتب الإسلامي .

(٢) النّحل : ٧٢ .

(٣) الروم : ٢١ .

أمر الله تعالى المجتمع المسلم أن يعمل على تزويج أبنائه وبناته أمرًا صريحًا حينما قال : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى منكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) . . الأيّم : غير المتزوّج ، ذكراً كان أو أنثى ، من لا زوجة له ، ومن لا زوج لها .

« وأنكحوا » : خطاب للمسلمين عامّة ، وأولى الأمر والأولياء خاصّة ، أن يزوّجوا هؤلاء ولا يدعوهم في حالة العزوبة يتعرّضون للشيطان وللشهوات .

لا يكن كلّ همّكم البحث عن المال : ماذا تدفع ؟ وكم تأخذ ؟ وماذا عندك من مال ؟ إنّها ليست سلعة تُباع وتُشترى ، إنّك حينما تزوّج ابنتك تريد لها إنساناً كريم الخلق ، متين الدين ، إن أحبّها أكرمها ، وإن أبغضها لم يظلمها .

زوّج ابنتك ذا الدين ، وابحث لها عن صاحب الدين والخلق : « إذا أتاكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه إن لا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » (٢) .

إنّ على مجتمعنا أن يعي أمر الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَى منكُمْ وَالصَّالِحِينَ من عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ، إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ من فَضْلِهِ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٣) .

كم من فقير اغتنى ، وكم من معسر أيسر ﴿ . . سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ (٤) ، ودوام الحال من المحال .

---

(١) النّور : ٣٢ .

(٢) رواه الترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن أبى هريرة ، ورواه ابن عدى عن ابن عمر ، ورواه الترمذي والبيهقي في السنن عن أبي حاتم المزني ، ورمز له السيوطي بالصّحّة (الجامع الصغير : ١ / ١٦) ، قال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) : أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة ، ونقل عن البخاري أنّه لم يعده محفوظا ، وقال أبو داود : إنه خطأ ، ورواه الترمذى أيضًا من حديث أبي حاتم المزني وحسّنه،ورواه أبو داود في المراسيل ، وأعلّه ابن القطان بإرساله وضعف رواته (٢ / ٢٢) . وأنظر أيضًا (فيض القدير : ١ / ٢٤٣ برقم ٣٤٧) .

(٣) النّور : ٣٢ . (٤) الطلاق : ٧ .

لا يجوز للآباء أن يجعلوا من بناتهم سلعاً ، لا يجوز للآباء أن يعطِّلوا البنات .

إنّ هذه الظاهرة الشاذّة في مجتمعاتنا ليست ظاهرة إسلاميّة بحال .

هؤلاء البنات اللاّئي نراهنّ بالمئات والآلاف - وهنّ بنات عائلات - لا ينقصهنّ الجمال ، ولا تنقصهنّ الثقافة ، ولا ينقصهنّ الأدب ، ولا تنقصهنّ الأخلاق ، فلماذا لا يتزوّجن ؟ من وراء هذا ؟ من المسؤول عن هذا ؟

طالما بحّت أصواتنا ، وناديا : يا قوم « يسّروا ولا تعسّروا . . » [1] ، لا تعسِّروا ما يسّر الله ، لا تحجّروا ما وسّع الله ، لا تضعوا عراقيل في طريق الحلال ، فنحن إذا يسّرنا الحرام - كما نرى - ووضعنا الأحجار في طريق الحلال ، وسددنا أبوابه ، فماذا تكون النتيجة ؟ إمّا الحرمان والكبت ، وإمّا الانحراف ، وعلى كُلّ المجتمع هو الخاسر ، والأخلاق هي الخاسرة ، والدين هو الخاسر .

مَنْ في الناس مِنْ أصحاب الجاه ، ممن له كلمة يقول : سأزوّج ابنتي بمائة ريال ؟ في اليمن بعض القضاة من أصحاب الأسر الكبيرة كان يزوّج قريباته وأقاربه ، بريال واحد ، ولقيت بعض هؤلاء وقال : أنا ممّن تزوّج بريال .

أراد هذا الرجل أن يكسر الحواجز ، وأن يضع عُرْفاً جديداً ، فلماذا لا يوجد بعض النّاس - عندنا - يفعلون هذا ، وتُزوَّج البنات ، ويُزوَّج الشباب ؟

كثير من الشباب يمكث إلى ما بعد الثلاثين ، ولم هذا ؟ إنّه يبلغ في الخامسة عشرة ، فلماذا يبقى خمسة عشر عاماً أو عشرين عاماً لا يتزوّج ؟ وماذا يفعل في هذه السنين ؟

علينا أن نُيسِّر ولا نعسّر ، علينا أن نضع من الأنظمة والتقاليد ما يُتيح للشاب أن يُحقِّق أمر الله تبارك وتعالى ويُتيح للجميع أن يكوّنوا الأسر المسلمة الصالحة ، وأن نرى في كلّ يوم زواجاً وزواجاً وزواجاً ، وأن نخرج من هذه الظاهرة الشاذّة - التى لا يقرّها الإسلام ، ولا يقرّها العقل ، ولا تقرّها المصلحة ، ولا الأخلاق ، ،ولا شيىء أبداً : عزوبة الرجال ، وعنوسة النّساء .

أسأل اللهّ تبارك وتعالى أن يفقّهنا فى ديننا ، وأن يعلّمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا

---

(١) روى البخاري ، ومسلم ، عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يسّروا ولا تعسّروا ، وبشّروا ولا تنفّروا » .

بما علمنا ، وأن يجعل يومنا خيراً من أمسنا ، ويجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأن ينصرنا على عدوّه وعدوّنا .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) .

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه والتابعين : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .
(٢) الحشر : ١٠ .
(٣) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن

٩ - التوبة النصوح

● **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

لازلنا مع (عباد الرحمن) ، لازلنا في رحاب القرآن ، لازلنا مع تلك الصفوة المختارة من عباد الله ، الذين شرّفهم الله تعالى بالإضافة إلى نفسه ، والعبوديّة له : عباد الرحمن .

وصفهم الله بخير الأوصاف ، في حالهم مع أنفسهم ومع الناس ، في ليلهم ونهارهم ، معه سبحانه ومع خلقه .

وصفهم بعمل الخيرات واجتناب السيئات ، فإذا كان غيرهم يرتكب الموبقات : يدعون مع الله إلهًا آخر ، أو يقتلون النفس التي حرّم الله بغير حق ، أو يتورّطون في الزني ، فإنّهم لا يفعلون شيئًا من ذلك ، ومن فعل شيئاً من هذه الكبائر يلق أثاما : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلا بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [جزاء ونكالا] * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ (١) .

هذا هو الآثام والنكال الذي ينتظره ، عذاب مضاعف يُكررّ عليه ويُغلّظ ، وعذاب الآخرة أشدّ وأنكى وأخزى من عـذاب الدنيا ، إنّه ليس عذاب يوم ولا يومين ، ولا شهر ولا شهرين ، ولا سنة ولا سنتين ، إنّه الخلود : « ويخلد فيه مهانا » .

وهو مع العذاب المادّيّ هناك إهانة نفسيّة معنويّة ، إنّه يخلد في هذا العذاب

---

(١) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ .

حقيراً مهانا ذليلا ، لا وزن له ولا قيمة له ، مهما كان مركزه في الدنيا ، ومهما كانت مكانته عند الناس ، فإنّه عند الله مُهانٌ ذليل : « ويخلد فيه مهانا » .

هذا شأن من يرتكبون تلك الموبقات ، ويقترفون تلك المنكرات .

ولكن هل سُدّ الباب عليهم ؟ هل قُطّعت دونهم الأسباب ، وغلّقت في وجوههم الأبواب ، فلا رحمة ينتظرونها ولا عفو يرتقبونه ؟ لا ، هنالك استثنى الله عزّ وجلّ فقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً ﴾ (١) .

هكذا فتح الله باب التوبة على مصراعيه ، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده .

عرف سبحانه ضعفهم ، عرف تسلّط الغرائز عليهم ، عرف وسوسة الشيطان لهم ، عرف أنّ الإنسان خُلق ضعيفاً ، فكثيراً ما يُغرى بالشرور ، وكثيراً ما يتورّط في الآثام ،وكثيراً ما تزلّ أقدامه ، فيطيع الشيطان ، ويسير في ركابه ، عرف الله ذلك من عباده ففتح لهم باب التوبة .

وهو سبحانه هو الذي خلقهم هكذا ، لأنّه سبحانه يريد أن يتوب على عباده ، فاسمه (التواب) ، وهو : ﴿ . . . يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(٢) ، واسمه (الغفّار) فمن شأنه أن يغفر ، واسمه (العفو) فمن شأنه أن يعفو .

ولهذا لم يخلق الله هذا النوع من خلقه ملائكة مطهرين ، وإنّما خلقهم بشراً لهم دوافعهم وشهواتهم ، وغضبهم وغرائزهم ، حتى يُذنبوا فيستغفروا ، فيغفر الله تعالى لهم ، وفي الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » (٣) .

إنّه (الغفّار) ، إنّه (العفوّ) ، إنّه (الرحيم) ، إنّه (التواب) ، فلا يعظم عليه ذنب ، مهما عظم ذنب ، فإنّ مغفرة الله تعالى أعظم منه ، ولهذا فُتح باب التوبة .

---

(١) الفرقان : ٧٠ ، ٧١ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

(٣) رواه مسلم وغيره ، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوى : ٢ / ٨٢٢ - ٨٢٣ الحديث ١٩٣٤) .

التوبة تجبّ الذنوب كلّها ، تغسل الإنسان من ذنبه ، وتذهب به كما يذهب الماء بالوسخ ، من تاب من الشرك قبل الله توبته : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ . . . ﴾ (١) . فالإسلام يجبّ ما قبله ، والتوبة تجبّ ما قبلها .

اختلف بعض الصحابة فى توبة القاتل ، لأنّ هناك حقوقاً ثلاثة : حقّ يتعلّق بالمقتول ، وحقّ يتعلّق بورثة وأولياء دمه ، وحقّ يتعلّق بالله .

قالوا : إذا تاب القاتل ، وعفا الله تعالى عنه وأسقط حقّه ، وعفا الورثة عنه وأسقطوا حقوقهم بالصلح أو بالدية ، فقد بقي حقّ المقتول .

ولكن الصحيح أنّه إذا تاب توبة نصوحا ، وعفا عنه أولياء الدم ، فإنّ الله أهلٌ لأن يُرضي عنه المقتول يوم القيامة .

فالتوبة تشمل كلّ الذنوب ، وهنا بعد أن ذكر الله الشرك ، والقتل ، والزنى ، قال : « إلاّ من تاب . . » فهو يشمل الذنوب الثلاثة .

ولكن : أىّ توبة ؟ ما التوبة المقبولة ؟

إنّها التوبة (النّصوح) ، والنّصح معناه : الخلوص من الغش ، أى أنّها ليست توبة زائفة ، ليست توبة مدخولة مغشوشة ، ليست كتوبة الكذّابين الذين يتوبون بألسنتهم وقلوبهم مصرّةٌ على المعصية ، لا .

إنّ للتوبة مقومات وأركاناً لابدّ أن تتوافر لها :

أوّل أركانها : النّدم ، كما سئل أنسٌ وغيره من أصحاب النبى ﷺ : أقال النبى ﷺ : « الندم توبة » (٢) ؟قال : نعم .

وهذا يعني أنّه أعظم أركان التوبة ، كما قال : « الحجّ عرفة » (٣) أى أعظم أركان الحج : عرفة .

---

(١) الأنفال : ٣٨ .

(٢) رواه أحمد بإسناد صحّحه الشيخ شاكر ، كما رواه ابن ماجه ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٢ ، الحديث ١٩٣٢) .

(٣) رواه أحمد ، وأصحاب السنن ، وابن حبان ، والحاكم ، والدارقطنى ، والبيهقى ، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمى (المقاصد الحسنة للسخاوى برقم ٣٩٤) .

النّدم : الأسى .. الحزن .. الحسرة التي تأكل القلب ، يحترق الإنسان داخلياً إذا تذكر معصيته لله ، لا يهنأ له بال ، ولا يسعد له حال ، ولا يطيب له نوم ، لأنّ ذنبه - كلّما تذكّره - ينغّص عليه نهاره ويؤرّق عليه ليله .

إنّه شعور بالتقصير أمام الله عزّ وجلّ ، يستجمع الإنسان في ذاكرته إساءته إلى الله ، وإحسان الله تعالى إليه ، يتذكر نعم الله تعالى عليه ، ويتذكر معصيته لله عزّ وجلّ ، كما جاء في أحد الأحاديث القدسيّة : « إنّي والجنّ والإنس في نبأ عظيم ، أخلق ويُعبد غيري ، وأرزق ويُشكر غيري »[1] ، خيري إلى العباد نازل ، وشرّهم إليّ صاعد ، أتحببّ إليهم بنعمي وأنا الغنيّ عنهم ، فيتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر شيىء إليّ .

من يريد التوبة يستجمع هذا ، يستحضر آلاء الله ونعمه عليه ، ويستحضر ذنوبه ومعاصيه مع الله عزّ وجلّ ، فينشأ من ذلك حالة (النّدم) ، حالة الأسى والأسف ، التي يذوب بها القلب كما يذوب الملح في الماء .

وصف الله لنا نفسيّة التائبين في سورة (التوبة) حين قال : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[2] .

أنظروا : « ضاقت عليهم الأرض بما رحبت» الدنيا على سعتها ضاقت عليهم ، وأنفسهم ضاقت عليهم،« وظنوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه » هذا هو شعور التائب ، هذا معنى (النّدم) ، وهذا أوّل عناصر التوبة ومقوّماتها ، إنّ النادم هنا يغسل ذنوبه بدموعه .

---

(١) رواه الحكيم الترمذى في نوادر الأصول ، والبيهقى في شعب الإيمان وكذا الحاكم عن أبي الدرداء ، كما في (فيض القدير : ٤ / ٤٦٩ برقم ٦٠٠٨) و (كنز العمال : ١٦ / ٣ برقم ٤٣٦٧٤) ، وضعفه السيوطى في (الجامع الصغير) وكذلك الألبانى في ضعيف الجامع لصغير (٤٠٥٢) ، الزيادة التى أوردها الشيخ : « خيرى إلى العباد نازل ... » لم أعثر عليها .

(٢) التوبة : ١١٨ .

الركن الثانى للتوبة : العزم المصمّم ألاّ يعود إلى الذنب : لا توبة إلاّ بهذا العزم ، أمّا إذا كان يتوب وهو بين بين ، وهو يحنّ إلى المعصية ، ولا يزال في قلبه تعلقّ بها ، ولا زال عقله يفكّر فيها ، فهذه ليست توبة ·

لابدّ أن يكون ساعة التوبة قاطع العزم كحدّ السيف، مصرًّا على ألاّ يعود إليها ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع إذا خرج منه ·

قد يضعف بعد ذلك ، قد تخونه إرادته ، قد يغلبه هواه ، قد يصرعه شيطانه ويهزمه ، فالمعركة بين الخير والشرّ مستمرة ، ولكن المهمّ ساعة التوبة يكون عازماً عزماً أكيداً ألاّ يعود إلى الذنب ·

الركن الثالث : أن يُقلع بالفعل عن ذنبه :

التوبة رجوع عن المعصية إلى الطاعة ، وعن السيئات إلي الحسنات ، رجوع من طريق الشيطان إلى طريق الله ، فلابدّ أنه يرجع ·· أن يغيّر طريقه ·· أن يغيرّ مجراه ·· أن يغيرّ صحبته ، يستبدل مكاناً بمكان ، وأناساً بأناس ، وأصحاباً بأصحاب [1] « ·· وأتبع السيئة الحسنة تمحها ·· » [2] .

إذا استجمعت هذه التوبة شرائطها ، فلا بدّ أن تُقبل حسب سنن الله سبحانه وتعالى ، لأنّه وعد بقبول التوبة : ﴿ ·· ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ [أي وفّقهم للتوبة] لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [3] .

سئلت رابعة العدويّة : أإذا تُبتُ تاب الله علىَّ ؟ فقالت : يا أحمق ، بل إذا تاب الله عليك تبت ، أما قرأت قوله تعالى: ﴿ ·· ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ·· ﴾ أي إنّه إذا وفقك للتوبة فهذا دليلٌ على أنّه قبلك ، ما دام قد بعثك وحفزك على أن تتوب ، فهذا دليل القبول من أوّل الأمر ·

التوبة مطلوبة من كلّ مسلم ، يقول القرآن : ﴿ ·· وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا

---

(١) كما أوصى الرجل العالم ذلك الرجل الذي جاءه يسأله عن التوبة ، وقد قتل مائة نفس ، فقال له : انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإنّ بها أناساً يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنّها أرض سوء (أنظر حديث أبى سعيد الخدرى المتفق عليه ، وقد أورده النووى في باب التوبة من كتابه الشهير : رياض الصالحين) ·

(٢) هو جزء من حديث أبى ذرّ ﷺ - الذى رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه الحاكم وصحّحه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى ، وهو من أحاديث الأربعين النووية ، ونصّه كاملاً : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧١٢ ، الحديث ١٥٩٤) ·

(٣) التوبة : ١١٨ ·

أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [1] ، ويقول أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا . . . ﴾ [2] ، فالمؤمنون مخاطبون ومأمورون جميعاً بالتوبة إلى الله تعالى .

كلّ إنسان مطالب أن يتوب ، مَنْ مِنَ الناس يرى نفسه معصوماً من الذنوب ؟ كلّنا مقصّر في حق الله ، كلّنا مفرّط في حقوق العباد ، ولذلك ينبغى أن نكون دائماً توابين .

النبى ﷺ مع حسن صلته بالله ، ومع إنّه كان لا يغفل عن ربه طرفة عين ، وكانت تنام عيناه وقلبه لا ينام ، وكان مع الله في غدواته ورَوْحاته ، وحركاته وسكناته كلّها ، ومع هذا كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإنّى أتوب في اليوم مائة مرّة » [3] .

التوبة مطلوبة من عباد الرحمن ، وخصوصاً إذا ارتكبوا موبقة من الموبقات ، إذا ارتكبوا كبيرة من الكبائر ، كهذه التي ذكرها القرآن [4] ، أو أيّ كبيرة أخرى .

الصغائر أمرها هيّن ، تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن الخطورة كلّ الخطورة في الكبائر ، فهذه لا يكفّرها إلاّ التوبة والتـــوبة النصـــوح ، فلابدّ منها . ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ . . . ﴾ [5] :

لماذا عقّب التوبة بالإيمان ؟ لأنّ الكبائر تخدش الإيمان وتجرحه ، بل تصيبه فى الصميم ، وقد ذكـــرنا الحديـــث الصحيح [6] : « لا يزنى الزانى حين يزني وهو

---

(١) النور : ٣١ .

(٢) التحريم : ٨ . وتتمّتـــها : ﴿ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

(٣) رواه مسلم عن الأغرّ بن يسار المزنيّ رضى الله عنه (رياض الصالحين للنووى : باب التوبة) .

(٤) أى فى قوله تعالى فى سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا اخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ . . ﴾ (٦٨) . (٥) الفرقان : ٧٠ .

(٦) الذى رواه البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، عن أبي هريرة - رضى الله عنه - المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٥١ برقم ١٣٩٩) .

مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » .

الإيمان إذن يُصاب بهذه الكبائر والموبقات .

لهذا كان على التائب أن يعمل على ترميمه بعد الإصابة ، وعلى تجديده بعد أن يخلق بهذه المعاصي الكبيرة، ومن هنا كان معنى قوله: ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ .. ﴾: جدّد إيمانه بهذه التوبة النصوح .

ثمّ لا بدّ - بعد التوبة والإيمان - من عمل صالح : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً .. ﴾ (١) أى لابدّ أن يبيض صفحته بالطاعات بعد أن سوَّدها بالمعاصي ، لابدّ أن يعمل الصالحات ويكثر من الحسنات،ويحاول أن يعوِّض ما فات ، لا بدّ من هذا ، كما قال الله تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وآمنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٢) .

إنّه كان يعمل السّيّئات فعليه أن يعمل مقابلها حسنات ، لقد غيرّ طريقه فلا يجوز أن يبقى فارغاً ، والنفس لا تبقى فارغة ، من لم يشغل نفسه بالحق شغلته نفسه بالباطل ، من لم يشغل نفسه بالطاعة شغلته نفسه بالمعصية ، المرء لا يبقى في فراغ ، لابدّ من عمل .

فإذا كان قد ولّى زمن السيئات فليستقبل زمن الصالحات ، وليعمل عملاً صالحاً .

وأبواب العمل الصالح كثيرة ومفتوحة ، مع الله ومع الناس ، في الليل والنهار : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴾ (٣) لا يضيع عند الله شيء ، ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (٤) .

على التائب أن يملأ صحائفه حسنات ما استطاع ، ويحاول - بقدر الإمكان - أن يجعل في مقابل السّيّئة حسنة من جنسها : إذا كان يغتاب المسلمين فليجعل من حسناته أن يدعو للمسلمين وأن يستغفر لهم ، إذا كان من سيئاته من قبل إنه يؤذي

(١) الفرقان : ٧٠ . (٢) طه : ٨٢ .
(٣) الزلزلة : ٧ . (٤) النساء : ٤٠ .

الناس بيده أو بلسانه ، فليكن من حسناته الجديدة أن يقدّم النفع للناس . . أن يُسدي الخير لهم . . أن يصنع المعروف معهم . . أن يميط الأذى من طريقهم . . أن يقدّم لهم ما استطاع من خير .

فإن عجز فليدلّ على خير : « والدال علـــى الخير كفاعـــله » [1] ، و « من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله » [2] .

فإن عجز فلينو الخير ، ربّما كانت نية المرء خيراً من عمله .

هذا هو المطلوب من التائب : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ [3] ، ما معنى هذه الكلمة القرآنية : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ؟ .

للمفسّرين فيها وجهان :

الوجه الأوّل : إنّ حياتهم قد تغيّرت ، وأعمالهم قد تبدلت ، فهم قد تحوّلوا من حياة المعصية إلى حياة الطاعة ، من الـــشرك إلى التوحيد ، من الكفر إلى الإسلام ، من الرياء إلى الإخلاص ، من إيذاء الناس إلى نفع الناس ، من إضاعة الصلوات واتباع الشهوات ، إلى المحافظة على الصلوات وإلى اجتناب الشهوات ، من كذا إلى كذا .

تبدّلت سيئّاتهم حسنات ، لأنّ حياتهم الجديدة قد قلبت الموازين ، وغيّرت الطريق ، اتجه الريح اتجاهاً جديدا .

هذا تأويل .

---

(١) هو جزء من حديث رواه البيهقى في الشُّعب عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ونصّه كامـــلاً : « كلّ معروف صدقة ، والدالّ على الخير كفاعله ، والله يحبّ إغاثة اللهفان » ، وقـــد رمز له السيوطى بالضعف في الجامع الصغير (٢ / ٩٤) . قال العلامة المناوى : وفيه طلحة بن عمرو أورده الذهبى في الضعفاء وقال : قال أحمد متروك ، وقال الحافظ العراقي : رواه الطبرانى في المستجاد من رواية الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده والحجاج ضعيف (فيض القدير : ٥ / ٣٣ برقم ٦٣٥٤) . والحديث وإن كان ضعيفاً إلاّ أنّ معناه صحيح ، ويشهد له حديث أبى مسعود التالي ، الذي رواه مسلم وغيره .

(٢) رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى ، من حديث أبي مسعود البدري رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ١٢٨ برقم ٧٧) .

(٣) الفرقان : ٧٠ .

والوجه الثانى : إنّ نفس السّيّئات تنقلب بالتوبة النصوح إلى حسنات ، وذلك أنّ التائب الذى صدقت توبته ، كلّما تذكّر ذنبه ندم وبكى واستغفر ، وطلب من الله العفو ، فهو دائماً يتذكّر ذنبه ، ويعقبه بالاستغفار والرّجعة إلى الله ، وبهذا تنقلب الذنوب نفسها إلى حسنات ، وتصبح السيئات في ميزانه حسنات وفي هذا - أيضاً - وردت بعض الأحاديث الدالّة على ذلك ، ولا حرج على فضل الله عزّ وجلّ .

إنّ الله لا يريد من عباده أن يبعدوا عنه ، ولكن يريدهم أن يقتربوا منه ، ويقول لهم - كما في الحديث القدسى :

« . . وإن تقرّب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرّب إلىّ ذراعاً تقرّبت إليه باعاً ، وإن أتانى يمشي أتيته هرولة » (١) .

من أقبل على الله تائباً تلقّاه من بعيد ، ومن أعرض عنه ناداه من قريب ، كما أمر نبيّه ﷺ أن يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُالرَّحِيمُ ﴾(٢) .

ما أرقّها . . ما أنداها . . ما ألطفها من عبارة .

إنّهم العصاة ، إنّهم الظالمون المسرفون على أنفسهم ، لم يحرمهم شرف العبوديّة له ، أبقى عبوديّتهم له ، وناداهم بهذا النّداء المؤنس المحبّب : « . . يا عبادي [أنتم عبادى وإن أخطأتم وعصيتم] الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إنّ الله يغفر الذنوب جميعا ، إنّه هو الغفور الرحيم » .

هذا نداء عامٌّ خالدٌ إلى يوم القيامة ، لكلّ العصاة والمسرفين على أنفسهم ، كما جاء في الحديث أيضاً : « قال الله : يا ابن آدم ، إنّك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عَنَان السماء ، ثم

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وأوّله : « يقول الله : أنا عند ظنّ عبدى بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسى ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم . . » ، ورواه أحمد بنحوه بإسناد صحيح ، وزاد في آخره قال قتادة : « والله أسرع بالمغفرة » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٤٣٧ برقم ٨٢١) .

(٢) الزمر : ٥٣ .

استغفرتني غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم ، إنّك لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ثمّ لقيتنِى لا تشرك بيِ شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة » [1] .

المهم أن تستغفر الله ، وترجع إليه ، وتنيب إليه ، وتقف على بابه ، ولن يردّك ، فباب الله ليس عليه حاجب يصدّ الناس عنه ، ولا بواب ، ولا ناطور ، ولا أحد ، الباب مفتوح ، كلّما قلت : يا ربّ ، قال الله لك : لبّيك عبدى وسعديك .

المهمّ أن تسارع إلى التوبة .. أن تبادر ولا تسوِّف ، فأكثر أهـل النار : المسوّفون ، الذين يقولون : سوف نتوب ، سوف نتدارك ، و (سوف) جند من جنود إبليس .

وما يدريك أنك ستعيش إلى غد أو بعد غد ؟ ما يدريك - وأنت في ريعان شبابك - أنك ستبقى إلى سنّ الكهولة ؟ وما يدريك وأنت في سنّ الكهولة أن تبقى إلى سنّ الشيخوخة ؟ وما يدريك أنّك إذا بقيت ستجد العزم على التوبة ؟ ربّما كان الإصرار على المعصية يغلق قلبك بالقساوة ، فلا تجد رغبة في التوبة ، لأنه الإنسان كلّما أذنب ذنباً نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب صقل القلب منها ، وأصبح أبيض صافيا ، فإذا لم يتب وفعـل أخـرى أصبحت نكتة سـوداء بجانب نكتة سوداء ... حتى يسودّ القلب كلّه والعياذ بالله [2] ، فذلك الران الذى ذكره الله

---

(١) رواه الترمذى عن أنس رضي الله عنه ، وقال : حيث حسن غريب (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان : ٩٠٤ ، ٢١١١) ، وهو الحديث الثاني والأربعون من أحاديث الأربعين النووية ، وقال ابن رجب في شرحه (جامع العلوم والحكم) : وإسناده لا بأس به ، و « العنان » هو السحاب ، و « قراب الأرض » أى ما يقارب ملأها .

(٢) يشهد لذلك حديث رسول الله ﷺ الذي رواه الترمذى عن أبي هريرة رضي الله عنه وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي ، وابن ماجه وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ، ونصه: « إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة ، فإن هو نزع واستغفر صُقلت ، فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَل رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٤٧٠ الحديث ٩٠٨) .

تعالى في كتابه : ﴿ كَلاَّ ، بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (١) ، وهنا يُخشى أن يسودّ القلب ويُظلم ، فلا يجد إرادة للتوبة ، ولا يجد رغبة فيها .

هذا هو خطر التسويف .

ثمّ إنّ الموت يأتي بغتة ، وخاصّة في عصرنا ، ما أكثر الذين يموتون في الحوادث ، وما أكثر الذين يموتون بالسكتة أو بالذبحة ، وما أكثر الذين يصبحون فلا يمسون ، أو يمسون فلا يصبحون : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء .. » (٢) .

تزوّد من التقوى فإنّك لا تدري إذا جنّ ليل هل تعيش إلى الفجر .

التسويف هو الخطر ، تُب من قريب : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (٣) .

صحيح إنّ التوبة تُقبل في أيّ حال ، إذا تُبت مختاراً قبل أن تبلغ الروح الحلقوم : « إنّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » (٤) ، ولكن من يضمن لك أن تتوب فيما بعد ؟ .

حاول أن تُبادر بالتوبة ولا تسوّف ، ولا تؤخّر ، ولا تستصغر ذنوبك ، فإنّ

---

(١) المطفّفين : ١٤ .

(٢) هو من كلام عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، وقد رواه البخاري وغيره ،وتتمته : « وخُذ من صحتك لمرضك ، ومن حياتك لموتك » . أنظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٦٦ الحديث ٢٠٨٠) .

(٣) النساء : ١٧ . وقال الله عقبها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [١٨] .

(٤) رواه الترمذي عن ابن عمر وقال : حديث حسن ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم وصحّحه ، ووافقه الذهبي ، وأورده الهيثمي في (المجمع) جزءاً من حديث وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير (عبد الرحمن بن البيلماني) وهو ثقة . ومعنى « يغرغر » : أي ما لم تبلغ روحه حلقومه ، فيكون بمنزلة الشيىء الذي يُتغرغر به (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢١ - ٨٢٢ الحديث ١٩٣٠) .

النبي ﷺ قال : « إيّاكم ومحقّرات الذنوب ، فإنّهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » (١) .

يا أيّها المؤمنون : توبوا إلى الله جميعا « كلّ ابن آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوّابون » (٢) .

آدم نفسه أخطأ ، وأكل من الشجرة ، ولكنّه محا هذه المخالفة بالتوبة ، فغُسل منها تماماً ، خلافاً لما يقوله دُعاةُ النصرانيّة ، الله تعالى يقول : ﴿ . . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) .

آدم أكل من الشجرة ، ثمّ دعا هو وزوجه : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٤) ، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٥) .

وإذا كان الأب قد أذنب وأخطأ ﴿ . . فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ (٦) كما قال القرآن ، فلا غرو أن يخطىء أبناؤه ، وأن يقعوا في المعصية ، ولكن الذي أعطاه الله لآدم أعطاه لذرّيته : (التوبة) .

يُروى : « إنّ الله عزّ وجلّ لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة ، فقال : وعزّتك لاخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : وعزّتي وجلالي لا حجبت عنه التوبة ما دام الروح فيه (٧) .

---

(١) رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود ، وكذا الطبراني والبيهقي ، كلهم من رواية عمران القطان ، وهو ممّن اختلف في توثيقه وتضعيفه ، وممّن وثّقه ومشّاه أحمد ، واحتجّ به ابن خزيمة وابن حبان والحاكم وغيرهم ، وبقيّة رجال أحمد والطبراني رجال الصحيح ، كما قال المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٧١ برقم ١٤٦٤) .

(٢) من حديث أنس رضي الله عنه ، رواه الترمذي وقال : حديث غريب ، ورواه ابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، وانتصر له ابن القطان ، وقال الذهبي : على لين ، وحسّنه الألباني في صحيح الجامع الصغير (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٠ الحديث ١٩٢٧) .

(٣) طه : ١٢١ ، ١٢٢ . (٤) الأعراف : ٢٣ . (٥) البقرة : ٣٧ .

(٦) طه : ١١٥ ، وأوّلها : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ . . ﴾ .

(٧) أورده الغزالي في الإحياء بصيغة : يُروى ، كذا ولم يعزه إلى النبي ﷺ ، والحديث أخرجه أحمد وأبو يعلى والحاكم وصحّحه من حديث أبي سعيد ، أنظر : الإحياء مع تخريج أحاديثه للعراقي (٤ / ١٤) ط . دار المعرفة - بيروت .

نستطيع أن نغلب الشيطان بالتوبة إذا صدقت .. إذا نصحت ، فإذا تُبنا إلى الله ، تقبلّ الله تعالى منّا .

ربّما كان هناك بعض التائبين أفضل ممنّ نشأوا في الطاعة ، لأنّهم كلّما تذكّروا ذنوبهم بكوا على أنفسهم بكاءً مرًّا ، فعاشوا بين الرجاء والخوف : ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّه ﴾ (١) ، يرجو عفو الله ويخشى عقابه ، فهو بهذه النفسيّة ربّما كان أفضل من كثير ممّن نشأوا في الطاعة .

إذا تاب الإنسان توبة نصوحاً محا الله عنه ما مضى ، وغفر له ما قد سلف : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (٢) .

هذه حقيقة ، وقد جاء في الحديث : « كان الكِفْلُ من بني إسرائيل ، وكان لا يَتَوَرَّعُ من ذنبٍ عَمِلَهُ ، فَأَتَتْهُ امرأةٌ ، فَأَعْطَاهَا ستينَ ديناراً على أَنْ يَطَأَهَا ، فلمّا أرادها على نفسها ارتعدت ، وبَكَتْ ، فقال : ما يُبْكيك ؟ قالت : لأنّ هذا عملٌ ما عَمِلْتُهُ ، وما حملني عليه إلاّ الحَاجَةُ ، فقال : تَفْعَلِينَ أَنْت هذا من مخافة الله ؟ فأنا أحرى ، اذهبي فلك ما أعطيتك ، ووالله لا أَعْصيه بَعْدَهَا أَبَداً ، فَمَاتَ منْ ليلته ، فَأَصْبَحَ مَكْتُوباً على بَابِه : إنَّ اللهَ قد غفَرَ للكفل ، فَعَجِبَ الناسُ من ذلك » (٣) .

الذي حدث أنّه في لحظة صلح مع الله تاب إلى الله عزّ وجلّ ، فمحا الله عنه ما كان منه ، أقبل على الله وندم وتاب فمات مغفوراً له .

---

(١) الزمر : ٩ .

(٢) رواه ابن ماجه ، والطبراني ، عن ابن مسعود رضي الله عنه ، ورواه الطبراني رواة الصحيح ، وحسّنه ابن حجر ، وكذلك الألباني في صحيح الجامع الصغير ، ورواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد : « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزئ بربه » قال المنذري : وقد روي بهذه الزيادة موقوفاً ، ولعلّه أشبه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٢ الحديث ١٩٣١) .

(٣) رواه الترمذي عن ابن عمير وقال : حديث حسن ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٦٠ برقم ١٤٢٨) .

هذا هو سرّ التوبة ، إنّها إكسير الحياة ، إنّها (المحّاءة) التي تمحو كلّ الذنوب إذا صحّت ونصحت وصدقت ﴿ . . وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ المؤْمنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) ، ﴿ . . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِرِينَ ﴾ (٢) .

اللهم تُب علينا توبة نصوحًا ، واغفر لنا ما مضى ، وأصلح لنا ما بقى .

استغفروا الله إنه الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

*** الخطبة الثانية :**

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

إذا صدقت التوبة قُبلت ، ويفرح الله تعالى بها فرحاً عظيماً ، حتى جاء في الحديث الصحيح : « للهّ أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل في أرض دوِّيَّة مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ ، وقد ذهبت راحلته ، فطلبها ، حتى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطش - أو ما شاء الله تعالى - قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ ، فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ، فالله أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته » (٣) .

أنظروا : كيف يفرح الله بتوبة عبده ؟!

إنّ الله يحب من عباده أن يتوبوا ، ويفرح بهم ، ويرحّب بهم ، ويستقبلهم ، فقد عادوا إليه بعد شرود .

ولكن هناك شرط مهمّ للتوبة :

التوبة إذا كانت تتعلّق بالمعاصي التي بين الإنسان وربّه ، فالأمر فيها هيّن ، ويقبلها الله ولا شك ، ولكن المشكلة تنشأ إذا كان بينك وبين العباد حقوق ، وبخاصّة الحقوق الماليّة كالديون التي للناس عليك .

---

(١) النور : ٣١ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

(٣) رواه البخارى ومسلم عن الحارث بن سويد عن عبد الله ﷺ (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨٢٤ ، الحديث ١٩٤٠) . و « الدوّيّة » : هي الفَلاَةُ القفر والمفازة .

إذا كنت اغتصبت منهم مالاً ، أو سـرقت ، أو ارتشيت ، أو غششتهم في تجارة ، أو فعلت شيئاً من ذلك ، أو أكلت وديعة أو أمانة عندك ، فعليك أن تردّها ، بل قال العلماء : عليك أن تردّها وتردّ ربحها .

إذا كان عندك ألف جنيه أو ألف ريال ، وبقيـت عندك عشر سنين وربحت منها ، فالمفروض أن تردّها وتردّ ربحها إلى صاحبها ، لأنّها لو كانت عنده لنمت .

جاء في الحديث الصحيح : « يُغْفَرُ للشهيدِ كُلُ ذَنْبٍ إلاّ الدَّين » (١) .

الشهيد في سبيل الله تُغفر ذنوبه كلّها ، صغائرها وكبائرها ، إلاّ الدّين .. إلاّ حقوق العباد .

فمن تاب توبة نصوحا : عليه أن يردّ الحقوق إلى أهلها ، فإن كانوا قد ماتوا يردّها إلى ورثتهم ، فإن كان الورثة قد ماتوا ، ردّ إلى ورثة الورثة .

لابدّ من الردّ أو الاستحلال ، بمعنى أن يطلب من أصحاب الحقوق أن يحلّوه من تبعتها ، كما جاء في الحديث الصحيح : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرض أو من شيىء ، فليتحلّله منه [يعني يقول له : أَحلِّني .. سامحني] من قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيّئات صاحبه فحمل عليه » (٢) .

العملة الوحيدة يوم القيامة : الحسنات والسّيّئات ، لا درهم ولا دينار ، ولا ريال ولا دولار ، ولا شيىء من هذا .

فالإنسان إمّا أن يردّ الحق إلى أهله ، وإمّا أن يتحلّل ويستسمح أصحاب الحق ، فإن سمحوا وإلاّ عليه أن يردّ إليهم ما استطاع إن عرفهم ، وإن لم يعرفهم - كأن يكون ظلم أناساً كثيرين ، أو ماتوا ولا ورثة لهم - يتصدّق عنهم ، والأولى أن

---

(١) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ١ / ٣٩٨ ، الحديث ٧٣١) .

(٢) رواه البخارى ، والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦١٩ برقم ١٣٠٤) .

يجعل صدقته جارية ، يضعها في مسجد ، أو في مشروع خيريّ ، ليظلّ أجره لهم إلى يوم القيامة ، هكذا ينبغي للمسلم أن يفعل .

فإن عجز فلينو : كلّما قدر علي شيىء ، ردّ منه ما استطاع .

فإن مات وهو عاجز ، فالله أهل أن يُرضي عنه خصماءه يوم القيامة .

الأمر شديدٌ إذن ، حقوق الله مبنيّة على المسامحة ، وحقوق العباد مبنيّة على المشاحّة ، كلّ يقول : حقّي حقّي ، نفسي نفسي .

فلا بدّ من رعاية هذا الشرط لمن أراد التوبة (النّصوح) .

وأولى من هذا كلّه أن يبعد الإنسان عن الحرام ، ويجنّب نفسه حقوق الناس ما استطاع .

ابتعد عن أكل أموال الناس بالباطل ، ابتعـــد عن الحرام ، بل عن الشبـهات « . . فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعي حول الحمي يوشك أن يرتع فيه . . » [1].

اللهمّ إنّا نسألك أن تغنينا بحلالك عن حرامك ، وبطاعتك عن معصيتك ، وبفضلك عمّن سواك .

اللهم تُب علينا توبة نصوحا ، اللهم أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا . اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2] .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا ، اللهم مكّن للمسلمين

---

(١) من حديث النعمان بن بشير ﷺ ، وقد رواه البخاريّ ، ومسلم ، والترمذي ، وأبو داود باختصار ، وابن ماجه ، وهو من أحاديث الأربعين النوويّة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٠٦ ، الحديث ٩٦٦) .

(٢) الحشر : ١٠ .

في ديارهم ، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السّفلى .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (١) ، اللهم آمين .

وصلّ اللهم على عبدك ورسولك محمد ، وعلى آله وصحبه ، ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ .

(٢) الأحزاب : ٥٦ .

صفات عباد الرحمن
١٠ - ترك شهـــــادة الزّور والإعراض عن اللغو

• **الخطبة الأولى :**

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لازلنا نعيش معاً في رحاب القرآن ، وفي صحبة عباد الرحمن ، الذين كرّمهم الله تعالى بذكرهم في كتابه ، وشرّفهم بالنسبة إليه ، والإضافة إلى ذاتــه المقدّســة : (عباد الرحمن) .

ذكر الله تعالى أوصافهم في ليلهم ونهارهم ، ذكر حالهم في أنفسهم ، وحالهم مع ربهم ، وحالهم مع النّاس ، حالهم في أموالهم ، وحالهم في أخلاقهم .

ذكر أحوالهم كلّها إيجاباً وســلباً ، فهم يفعــلون الصالحات ، ويجتنبون الموبقات : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ . . ﴾ (١) ، يحافظون على الكليّات الخمس : الأديان ، والأنفس ، والعقول ، والأعراض (أو الأنساب) ، والأموال .

وصفهم الله بالمحافظة على هذا كلّه .

فإذا زلّت أقدامهم يوماً ، فارتكبوا مُنكراً من المنكرات ، أو اقترفوا موبقة من الموبقات ، سُرعان ما يرجعون إلى الله ، سُرعان ما يقرعون باب التوبة ، سُرعان ما يقولون ما قال أبوهم آدم وأمّهم حوّاء : ﴿ . . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

ليس عجيباً أن يخطىء ابن آدم إذا كان آدم نفسه قد أخطأ وأذنب ، ولكن آدم محا خطيئته بالتوبة . . غسل معصيته بالرّجعة إلى الله : ﴿ . . وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) ، ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

---

(١) الفرقان: ٦٨ . (٢) الأعراف: ٢٣ . (٣) طه: ١٢١ ، ١٢٢ . (٤) البقرة : ٣٧ .

ولذلك كان (عباد الرحمن) توّابين أوّابين : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا ﴾ (١) .

لا يحتاجون إلى كاهن يقفون بين يديه يعترفون له بذنوبهم ، أو يقّرون له بما ارتكبوه في علانيتهم وسرّهم ، ما كلّفهم الله هذا ، حسبهم أن يتوبوا بينهم وبين ربّهم ، وقد فتح لهم باب التوبة على مصراعيه ، ليس عليه حاجب ، ولا بوّاب : « إنّ الله عزّ وجلّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيىء النهار ، ويبسط يده بالنّهار ليتوب مسيىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » (٢) ، ويدعو عباده آناء الليل وآناء النهار ، وإن ظلموا وعصوا وأسرفوا على أنفسهم : ﴿ .. يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا من رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

هكذا وصف الله عباد الرحمن .

ثمّ وصفهم بوصف جديد ، هو موضوع خطبتنا هذا اليوم ، وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (٤) .

ما معنى : « لا يشهدون الزور » ؟ .

أى : لا يشهدون شهادة الزور ، فهي هنا مأخوذة من الشهادة ، لا يورّطون أنفسهم في هذه الكبيرة ، التي هي من أكبر الكبائر ، كما روى الشيخان عن أبي بكرة رضي الله عنه ، أنّ النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » - ثلاثاً - قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس [دلالة على أهمية ما يقول] فقال : « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » فما زال يكرّرها حتى قلنا : ليته سكت (٥) ، إشفاقاً عليه ﷺ ، فإنّه كان يكرّر بعض الكلمات ثلاثاً

---

(١) الفرقان : ٧٠ ، ٧١ .

(٢) رواه مسلم والنسائي عن أبي موسى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٨١٩ برقم ١٩٢١) .

(٣) الزمر : ٥٣ .

(٤) الفرقان : ٧٢ .

(٥) رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١٣٥٧ ، ١٤٩١) .

لعظم خطرها ، لينبه العقول والقلوب إليها ، حتى تتفتح الأذهان والعقول ، فإذا كان هناك من هو مشغول بأمر من أموره ولم يسمع الكلمة الأولى ،كرّرها حتى تُسمع وتُعقل وتُنقل ،وحتى تُغرس في القلوب غرسا .

المسلم لا يقول زُورا ، ولا يشهد زُورا ،وكان النبي ﷺ يقول : « اللهم إنّي أعوذ بك أن أقول زورا ، أو أغشى فجورا ، أو أكون بك مغرورا » .

وكان يقول [1] : « عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله » - ثلاث مرات - ثمّ قرأ : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِه ﴾ [2] .

وإنّما عُدلت شهادة الزور بالإشراك بالله عزّ وجلّ ، لما وراءها من تضييع الحقوق ، ومن تأريث نار الخصومات بين الناس ، وراءها ما وراءها ، من أن يأكل القوي الضعيف ، من أن يشتري بعض الناس الضمائر بأموالهم حتى يأتوا ليشهدوا بالباطل ، ويضيّعوا الحق ، لهذا كانت من أكبر الكبائر .

عباد الرحمن لا يفعلونها ، عباد الرحمن إذا شهدوا شهدوا بالحق ،ولو كان ذلك على أنفسهم ، أو والديهم ، أو أقرب الناس إليهم ، لا يمنعهم - كذلك - بُعد البعيد ولا عداوة العدو أن يشهدوا بالحق له ، الله تعالى يقول : ﴿ .. وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى .. ﴾[3]، ﴿ .. وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى .. ﴾ [4] .

إذا طُلب عبدٌ من عباد الرحمن للحق شهد به ، وقال ما يعلم ، لم يخن ، ولم يخالف ، ولم يزوّر ، ولم يزد في الكلام ، ولم ينقص منه .

إذا طُلبت منه الشهادة لا يأبى ، كما قال الله تعالى : ﴿ .. وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا .. ﴾ [5] ، بعض الناس لا يكذب في الشهادة ، ولكنّه

---

(١) في حديث خُريم بن فاتك ﷺ ، الذي رواه أبو داود واللفظ له ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد ، ورواه الطبراني في الكبير موقوفاً على ابن مسعود بإسناد حسن ، كما قال المنذري (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٦٣٤ - ٦٣٥ برقم ١٣٥٩) .

(٢) الحج : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) المائدة : ٨ ، وتتمتها : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ ، إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ .

(٤) الأنعام : ١٥٢ . (٥) البقرة : ٢٨٢ .

يكتمها ،وربما كان في كتمانه إضاعة للحقوق ، ربّما كان فى كتمانه انتصار للباطل ، ربّما كان في كتمانه ضياع الدين وضياع الدنيا معاً ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ (١) ، وهذا يدلّ على أنّ كتمان الشهادة من الكبائر ، وصدق الله العظيم إذ يقول في آية أخرى : ﴿ .. وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ ،وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

كم من حقوق ضُيّعت ؟ وكم من حُرمات انتهكت ؟ وكم من أعراض أهينت ؟ وكم من دماء أريقت ؟ وكم من أرواح أزهقت ؟ وكم من شعوب اضطهدت ؟ وكم وكم .. من أجل أناس كتموا شهادة يجب أن يقولوها .

كم من أناس قيّدوا ألسنتهم ، فلم يقولوا الحقّ ، والحقّ مطلوب منهم ، لم يقولوا كلمة بألسنتهم ، ولم يقولوا كلمة بأقلامهم ، حينما طُلب إليهم أن يشهدوا وأن يقولوا .

شهادة الحق هي التي تُعلي كلمة الله في الأرض ، والشاهدون بالحق هم الذين يقومون بالشهادة ، لا يبالون بما يصيبهم في سبيل الله : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴾ (٣) ، لا يخافون لومة لائم ، يعلمون أنّ ما يخاف الناس عليه لا يخافون هم عليه ، فالناس يخافون على أرزاقهم أن تُنقص ، أو على أعمارهم أن تُقطع ، والأرزاق مضمونة ، والأعمار محدودة ، لا يستطيع أحد أن يزيد في رزقك ولا أن ينقص منه ذرّة ، ولا يستطيع أحد أن يُؤَخر أجلك أو يقدّمه لحظة : ﴿ .. فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٤) .

عباد الرحمن إذا طُلبوا للشهادة أدّوها على وجهها ، لم يغيّروا ، ولم يحرّفوا ، ولم يبدّلوا ، ولم يخونوا ، ولم يكتموا .

هذا أحد التفسيرين للآية الكريمة .

والتفسير الثاني : « والذين لا يشهدون الزور » أي لا يحضرونه .

« يشهدون » هنا من الشهود ، وليس من الشهادة ، هم لا يحضرون الزور ،

---

(١) البقرة : ٢٨٣ . (٢) البقرة : ١٤٠ .

(٣) المعارج : ٣٣ . (٤) الأعراف : ٣٤ ، النّحل : ٦١ .

ولا يجلسون مجالس الزور ، ولا يذهبون إلى أماكن الزور ، وفسّر الزور هنا بما شئت .

وقد تنوّعت عبارات المفسّرين في تفسير الزور هنا ، وهي - كما قال الإمام ابن تيمية - من اختلاف التنوّع وليس من اختلاف التضاد .

هناك من قال : الزور هو الشرك ، وهناك من قال : الزور هو الكذب ، وهناك من قال : الزور أعياد المشركين ، وهناك من قال : الزور هو اللهو والغناء ، وهناك من قال : الزور هو النّياحة ، وهناك من قال : الزور هو شرب الخمر ، وهناك من قال ومن قال .. وكلّها يجمعها أنّ الزور هو الباطل والمعصية .. هو الميل عن الحق .. هو البعد عن الخير وعن الطاعة .

ومعنى هذا أنّ عباد الرحمن لا يحضرون هذه الأماكن ، ينزّهون أنفسهم أن يكونوا من جلسائها ، فإنّ مجالس الخير تُؤثّر في أصحابها ، ومجالس السوء - كذلك - تؤثر في أصحابها ، وكلّنا يعرف الحديث الشريف عن حامل المِسْك ونافخ الكير ، وجليس الخير وجليس السوء [1] .

قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الآية : والأظهر من السياق أنّ المراد : لا يشهدون الزور ، أي لا يحضرونه ، ولهذا قال : « وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » أى لا يحضرون الزور ، وإذا اتفق مرورهم به ، مرّوا ولم يتدنّسوا منه بشيء [2] .

فهؤلاء لا يجلسون مجالس السوء ، لا يشاركون المشركين والكفّار في أعيادهم ، كالذين يحتفلون بأعياد غير المسلمين ،وربّما مرّت عليهم أعياد المسلمين وهم لا يلقون لها بالاً .

هؤلاء لا يحضرون أعياد الكفّار ، ولا يحضرون مجالس الكفر ، ولا مجالس الباطل ، ولا مجالس الفجور ، لأنّ الذي يجلس فيها يناله رذاذ من إثمها .

---

(١) ونصّ الحديث الذي رواه البخارى ، ومسلم ، عن أبي موسى رضي الله عنه : « إنّما مثل الجليس الصالح ، والجليس السوء ، كحامل المِسْك ونافخ الكير ، فحامل المسك إمّا أن يُحْذيك ، وإمّا أن تبتاع منه ، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبة ، ونافخ الكير إمّا أن يحرّق ثيابك ، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثة » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧٩٩ برقم ١٨٧٢) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير : (٣ / ٣٢٩) ط . الحلبى .

ومن هنا كانت فلسفة الإسلام : أنّه إذا حرّم شيئاً ، حرّم كلّ ما يؤدي إليه ويعين عليه ، فلعن في الخمر عشرة ، [1] ولعن في الربا آكله ومؤكله وكاتبه وشاهديه [2] ، ولعن النائحة والمستمعة [3] ، وذمّ المغتاب وسامع الغيبة .

وذلك أنّك إذا جلست مجلس سوء، فإنّك تشجّع أصحابه . لولا الحضور .. لولا الجلوس من النّاس ، ما بقي هؤلاء في مجلسهم ، ولكن استحسان الحاضرين والسامعين ، وإنصاتهم لما يُقال - أو على الأقل سكوتهم عنه - يشجّع هؤلاء على منكرهم .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [4] بمجرد جلوسكم إليهم ، واستماعكم لهم ، ومشاركتكم إيّاهم ، أصبحتم مثلهم .

من هنا لمّا جيىء إلى الخليفة الراشد - خامس الراشدين - عمر بن عبد العزيز بجماعة كانوا يشربون الخمر ، فأمر بحدّهم - إقامة الحدّ عليهم - فقيل له : يا أمير المؤمنين إنّ فيهم رجلاً ليس منهم - لم يشاركهم فى الشرب - ولكنّه جلس إليهم وهو صائم ، فقال : صائم ، ويجلس مع شاربي الخمر ، وفي مجلس الخمر ، به فابدأوا ، إنّ الله تعالى يقول : ﴿ .. إِنَّكُم إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ وأمر أن يُبدأ بجلده وضربه .

---

(١) روى أبو داود ، والحاكم وصحّحه ، من حديث ابن عمر : « لعن الله الخمر ، وشاربها ، وساقيها ، وبائعها ، ومبتاعها ، وعاصرها ، ومعتصرها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وآكل ثمنها » قال المناوي في الفيض : ورواه ابن ماجه عن أنس ، قال المنذري : ورواته ثقات (٥ / ٢٦٨) .

(٢) عن جابر رضي الله عنه قال : « لعن النبي ﷺ آكل الربا ، ومؤكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وقال : هم سواء » رواه مسلم وغيره (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٣٤ برقم ١٠٥٦) .

(٣) روى أحمد وأبو داود عن أبي سعيد رضي الله عنه : « لعن الله النائحة والمستمعة » فيه محمد بن الحسن بن عطية العوفي عن أبيه عن جده وثلاثتهم ضعفاء ، أنظر : (فيض القدير للمناوي : ٥ / ٢٧٢ برقم ٧٢٧١) .

(٤) النساء : ١٤٠ .

لا ينبغـــي للمؤمن أن يجلـــس في مكان المنكر ، وقد جـــاء في الحديث : « . . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يجلس على مائدة يُدار عليها الخمر » [1] .

المؤمن ينّزه نفسه عن مجالس السوء ، حتى لا يأخذه لهيب النّار التي تأكل هؤلاء من بعد ، سيشاركهم شاء أم أبى ، فالأولى أن يُبعد نفسه عنهم ، وبخاصّة أنّ كثيراً من المجالس لا تخلو من فاكهة المجالس : الغيبة ، والنميمة ، والحديث عن أعراض النّاس ، وكلّ هذا يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .

كلمة واحدة يقولها الإنسان لو مُزجت بماء البحر لمزجته ، يهوى بها في النّار سبعين خريفاً - وهو لا يلقي لها بالا - من سخط الله تعالى عليه .

من هنا كان من أوصـــاف عباد الرحمن : ﴿ . . وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [2] : إذا اتفق مرورهم على مجالس اللغو ، نزّهوا أنفسهم عنه : « كراما » بمعنى أنّهم يكرمون أنفسهم أن يُشاركوا في هذا الباطل ، إنّ أنفســـهم أعزّ عليهم من أن يشاركوا في باطل ، وأعمارهم أغلى عندهم من أن يضيعّوها في باطل وفي لغو .

الله تعالى وصف المؤمنين المفلحين ، الذين كتب لهم الفردوس ، هم فيها خالدون ، فكان من أخصّ أوصافهم : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [3] رأس مالهم أوقاتهم ، فكيف ينفقونها في اللغو ؟ لا يقبلون أن يضيّعوا أوقاتهم في مثل هـــذا ، إنّ الوقـــت الذي يضيعـــونه في لغـــو ، يمكن أن يسبّحـــوا الله فيه ، أو يكبّروه ، أو يهلّلوه ، أو يذكروه ذكراً كثيراً .

كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ صحائف حسنات الإنسان ، وكلمة في مقابلها تسوّد صفحاته بالسيّئات والعياذ بالله ، وقد قال الإمام الغزالي : إنّك تستطيع

---

(١) رواه النسائي من حديث جابر مرفوعاً وإسناده جيد ، ورواه الترمذي وقال : حسن غريب ، والحاكم وصحّحه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبى ـ فيض القدير للمناوي : ٦ / ٢١١ - ٢١٢ برقم ٨٩٨٤) ، والحديث له عدة شواهد يقوى بها ، ذكرها الهيثمى في مجمع الزوائد (١ / ٢٧٧ ، ٢٧٩) ، وأوّله « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمّام بغير إزار ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُدخل حليلته الحمّام » .

(٢) الفرقان : ٧٢ . (٣) المؤمنون : ٣ .

أن تبني بكلمة قصراً في الجنّة ، ومن ضيّع قصراً أو كنزاً من الكنوز ليأخذ مكانه حصاة ، فقد خسر خسراناً مبيناً [1].

أى أنّ الإنسان إذا لم ينفق وقته في الطاعة - حتى لو لم ينفقه في معصية - كان خاسرا ، فما بالك إذا أنفقه في طريق المعصية ؟! ما بالك إذا أنفقه في المكروهات التي تؤدي إلى المشتبهات ؟! والمشتبهات التى تؤدي إلى صغائر المحرّمات ؟! والصغائر التي تؤدّي إلى الكبائر ؟! والكبائر بريد الكفر والعياذ بالله تعالى .

عباد الرحمن يُنزّهون أنفسهم عن مثل هذا اللغو ، حتى لو عرض لهم من عرض من الناس - يريد أن يجرّهم إلى اللغو - لا يجارونه ، ولا يقابلون اللّغو بمثله ، بل يعرضون عنه ، ويوفّرون أوقاتهم ، ويدخرون طاقاتهم ، ويوفّرون جهودهم ، لما هو خير وأبقى .

وصف الله جماعة من المؤمنين بقوله : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [2] .

فهذا تكميل لما بدأ الله به من أوصاف عباد الرحمن ، حينما قال : ﴿ .. وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ [3] .

هؤلاء هم عباد الرحمن :

« .. وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

« .. وإذا مرّوا باللغو مرّوا كراما » .

إنّهم مشغولون بآخرتهم عن دنياهم ، مشغولون بإصلاح النفس عن مجاراة

---

(١) ونصّ عبارته رحمه الله - كما في الإحياء - هي : « ولو هلّلت الله سبحانه وذكرته وسبّحته لكان خيراً لك ، فكم من كلمة يُبنى بها قصر في الجنّة ؟ ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز ، فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها ، كان خاسراً خسرانا مبينا ، وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنّه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى » . أنظر : الآفة الأولى .. الكلام فيما لا يعنيك (إحياء علوم الدين : ٢ / ١١٢) ط . دار المعرفة - بيروت .

(٢) القصص : ٥٥ .

(٣) الفرقان : ٦٣ .

النّاس ، مشغولون بالحقّ عن الباطل ، مشغولون بالجدّ عن الهزل ، مشغولون بالبناء عن الهدم .

إنّهم لا يقيمون معارك جانبيّة تافهة من أجـــل أمور لا تُسمن ولا تغني من جوع ، إنّهم مشغولون بمصايرهم ، مشغولون بآخرتهم ، مشغولون بهموم أمّتهم ، مشغولون بآمال دينهم ، مشغولون بمآسي المسلمين في كل مكان ، و « من لا يهتمّ بأمر المسلمين فليس منهم . . » (١) .

فما لهم وللّغو ؟ وما لهم وللخصومات ؟ وما لهم وللمعارك التافهة ؟ إنّهم في شغل عن ذلك كلّه بما هو أعظم وأكبر ، ولهذا وُصفوا بأنّهم « إذا مرّوا باللّغو مرّوا كراما » .

قد يُشتمون ، وقد يُسبّون ، وقد يُساءُ إليهم ، ولكنّهم متسامحون في حقّ أنفسهم .

لا يتسامحون في حقّ دينهم ، يغارون على حرمات الله أن تُنتهك ، يغضبون لله ولكتابه ولسنّة رسوله ، ولكن من عرض لهم في أنفسهم فهم يُعرضون عنه ، يقولون : « . . سلام عليكم لا نبتغي الجاهـــلين » ، كمـــا قال الشـــاعر الصالح (محمود الورّاق) :

سألزم نفسي الصّفح عن كلّ مذنب ... وإن كثـــرت منـــه عليّ الجرائم
فما الناس إلاّ واحـــد من ثلاثة ... شريفٌ ومشـــروفٌ ومثـــلٌ مقاوم
فأمّا الذي فوقي فأعـــرف قدره ... واتبع فيـــه الحـــقّ والحقّ لازم
وأمّا الذي دوني فإن قال صنتُ عن ... إجابـــته عرضـــي وإن لام لائم
وأمّا الذي مثلـــي فإن زلّ أو هفا ... تفضّلت ، إنّ الفضـل بالحلم حاكم

أي أنّه مع كلّ الناس : عفوٌ ، صفوحٌ ، متخلّقٌ بأخلاق الله تبارك وتعالى .

هذا هو شأن عباد الرحمن ، لا يشغلون أنفســهم بالخوض في الباطل ، فإنّ أكثر النّاس خطايا ، أكثرهم خوضاً في الباطل كما قال ابن مسعود رضي الله عنه .

---

(١) رواه الطبراني من رواية عبد الله بن أبي جعفر - هو مختلفٌ فيه - عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، وتتمّته : « ومن لم يُصبح ويمسي ناصحاً لله ، ولرسوله ، ولكتابه ، ولإمامه ، ولعامّة المسلمين ، فليس منهم » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥١٤ ، الحديث ٩٩٧) .

لا يتكلّمون فيما لا يعنيهم ، فـ « من حُسْن إسلام المرءِ تركُهُ مالا يعنيه » [1] ، يعمرون أوقاتهم بالخيرات وعمل الصالحات ، يعلمون أنّ كلمة واحدة من كلمات الخير تملأ الصحائف وتملأ الميزان ، كما جاء في الحديث الصحيح عن النبى ﷺ : « . . . والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السماء والأرض . . » [2] .

كلمة واحدة يثقل بها الميزان يوم القيامة ، وترجح بها كفّة الحسنات على كفّة السيّئات ، فما أحوج الإنسان إلى أن يُثقل ميزانه حتى يكون من أهل العيشة الراضية في جنّة عالية وحتى لا يخفّ ميزانه ، فتصبح أمّه هاوية : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ [3] .

كان عطاء بن أبي رباح ، التابعيّ الفقيه الجليل ، يقول : إنّ من كان قبلكم - يريد الصحابة رضوان الله عليهم - كانوا يعدّون من اللّغو كلّ ما عدا كتاب الله وسنّة رسوله ، أو أمراً بمعروف ، أو نهياً عن منكر ، أو ذكراً لله تعالى ، أو ما لا بدّ منه في معيشة الدنيا . وما عدا ذلك يعتبرونه من اللّغو ، لأنّهم كانوا يعلمون أنّ عليهم حافظين كراماً كاتبين ﴿ . . عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [4] . فكانوا يستحون أن تُنشر صحائفهم التي أَمْلَوها ، فلا يجدوا فيها إلاّ مالا ينفع (لا في الدين ولا في الدنيا) .

---

(١) رواه الترمذي عن أبي هريرة وقال : حديث غريب . ورواه أحمد ، والطبراني في كتبه الثلاثة ، عن الحسين بن علي ، وقال الهيثمي : ورجال أحمد والكبير ثقات . وصحّحه الشيخ شاكر في المسند (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٧٥١ برقم ١٧٤١) . وهو الحديث الثاني عشر من الأربعين النوويّة .

(٢) جزء من حديث رواه مسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، عن أبى مالك الأشعري وأوّله : « الطهور شطر الإيمان » وآخره : « والصلاة نور ، والصدقة برهان ، والصبر ضياء ، والقرآن حجّة لك أو عليك ، كلّ الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : الحديثان ١١٨ ، ٨٦٠) ، وهو الحديث الثالث والعشرون من الأربعين النوويّة .

(٣) القارعة : ١٠ ، ١١ .

(٤) سورة ق : ١٧ ، ١٨ .

فيا أيّها الإخوة المسلمون :

حاولوا أن تتخلّقوا بأخلاق عباد الرحمن ، أن تكونوا إيجابيّين ، أن تُنزّهوا أنفسكم عمّا يفعله اللاّهون العابثون من النّاس .

قولوا الحق ، واشهدوا بالحق ، ولا تحضروا مجالس الزّور أيًّا كان اسمها وعنوانها ، وإذا مررتم باللّغو - أيًّا كان مضمونه أو عنوانه - فمرّوا عليه مرّ الكرام .

مرّ ابن مسعود رضي الله عنه - بمجلس لهو فلم يقف عنده ، وبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ . . وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ (١) .

نسأل الله عزّ وجلّ أن يفقهنا في ديننا ، وأن يغفر لنا ويرحمنا ، إنّه هو الغفور الرحيم .

أقول قولي هذا ، واستغفر الله لي ولكم ، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم ، وادعوه يستجب لكم .

* *

• الخطبة الثانية :

أمّا بد فيا أيّها الإخوة المسلمون :

جاءتني أعداد من الرسائل ، تشكو من ظاهرة أعتقد أنّها ظاهرة مرضيّة ، ولا تليق بمجتمع مسلم .

تشكو هذه الرسائل من قسوة بعض الأزواج على زوجاتهم .

هذا الرجل الذي يُعامل امرأته في بيته كأنّها متاع من متاع البيت ، لا رأي لها ، ولا تُستشار في أمر ، لا يبشّ في وجهها ، لا ترى بسمةً على شفتيه ، لا تسمع منه كلمة طيبّة .

والعجيب في هذه الرسائل ، أنّ بعضها تقول : إنّ زوجها رجل طيبّ ومتديّن ، حريص على دينه ، يُصلّى الصلوات الخمس ، ويصلّى بعضها في المسجد ، ويقرأ القرآن ، ويدرس الحديث ، ويقرأ الكتب الدينيّة ، ولكنّه مع أهله

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسير الآية (٧٢) من سورة الفرقان ، نقلاً عن ابن أبى حاتم وغيره . أنظر : تفسير ابن كثير (٣ / ٣٢٩) ط . الحلبي .

خشن الطباع ، قاسى القلب ، فظّ غليظ ، وهذا فى الحقيقة ممّا يُعجب له أشدّ العجب .

إنّ المسلم قُدوته في ذلك رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ كان خير الناس لأهله ، كما قال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » (١) .

كان ألطف الناس معشراً ، وأرقّهم حاشية ، وألينهم جانباً مع أهله .

كان - رغم همومه الكثيرة :همّ الدعوة ، وهمّ الدولة - يقيم ديناً جديداً ، وينشىء أمة جديدة ، ويقيم دولة جدُيدة ، ويحارب في جبهات شتّى : جبهة الوثنيّين المشركين ، وجبهة اليهود الغادرين وجبهة النصارى المتربّصين ، وجبهة المجوس المغرورين ، وجبهة الطابور الخامس في الداخل (المنافقين) ، جبهات عديدة كان يواجهها النبى ﷺ ، ومع هذا لم يكن يشغله ذلك عن أمر بيته وأهله .

كان يصلّى حتى تتورّم قدماه ، كان يبكي حتى تبلّل دموعه لحيته ، ولكن لم يشغله حقّ ربّه عن حق أهله ، كما لم يشغله حق دعوته ورسالته وأمّته عن حقّ أهله وزوجاته . فكان يجد من قلبه الكبير ما يتسع لملاطفة هؤلاء الزوجات . وكان يمازحهنّ .. يطيبّ خواطرهنّ .. يسمع لهنّ الأحاديث كحديث أمّ زرع ، وهنّ اثنتا عشرة زوجة ، كل واحدة لها قصّة ، ويقول لعائشة في النّهاية : « كنتُ لك كأبى زرع لأمّ زرع ، إلاّ أنّه طلّقها وإنّي لا أطلّقك » (٢) .

وكان يشاورهنّ في كثير من الأمور ، ويسمع لرأيهنّ .

شاور أمّ سلمة في الحديبية وأخذ برأيها (٣) ، على حين يزعم بعض النّاس أنّ

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها ، ورواه ابن ماجه من حديث ابن عباس ، والحاكم إلاّ أنه قال : « خيركم خيركم للنساء » وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب : ٢ / ٥٥٣ - ٥٥٤ برقم ١١١٠) .

(٢) قطعة من حديث طويل أخرجه البخارى ، ومسلم ، والترمذى . وقوله : « إلا أنّه طلقها وإني لا أطلقك » هو من رواية (الزبير بن بكار) كما ذكر الحافظ في الفتح ، ومثله في رواية للطبراني ، وزاد النسائي في رواية له والطبراني : قالت عائشة : يا رسول الله بل أنت خير من أبى زرع(شرح السنة للبغوى بتحقيق الأرناؤوط: ٩ / ١٦٨-١٨٠ برقم ٢٣٤٠) .

(٣) وذلك حينما أشارت عليه أن يخرج إلى أصحابه فيتحلل من إحرامه أمامهم دون أن يكلّمهم ، وقد فعل ذلك ، فكلّهم تحلّل كما تحلّل ، وقبل ذلك كان أمرهم بالتحلّل من إحرامهم فعزّ عليهم ذلك ولم يفعلوا .

هناك حديثاً يقول : « شاورهنّ وخالفوهنّ » [1] ، وهذا ليس بحديث ، وهو مخالف للقرآن الذي يقول : « فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ . . » [2] .

المرأة ليست كمًّا مهملاً ، ليست حجراً في البيت ، إنّما هي إنسان ، إنسان يشارك إنساناً ، ولذلك جاء في الحديث : « آمروا النساء في بناتهنّ » [3] أى : إذا أردت أن تزوّج ابنتك فخذ رأي أمّها ، لأنّها أعرف بها ، وأخبر بعواطفها ، وأدرى بما تخبّئه عنك من أسرارها ، وأقرب إليها ، فحاول أن تتعرّف على رأى الفتاة من أمّها .

المرأة ينبغى أن يُعرف حقّها ، لا ينبغي للمسلم أن يُهمل امرأته ، وأن يدخل ويخرج وكأنّه ليس أحد في البيت ، كما يفعل بعض النّاس للأسف ، لا يكاد يري امرأته ، لا يكاد يأكل معها ، يأتي متأخراً في الليل ، ويذهب مبكّراً في النهار ، وإذا جاء يأكل أو يشرب ثم يخرج ، هذه ليست الحياة الزوجية في الإسلام .

الحياة الزوجيّة سكون ومودّة ورحمة : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُم مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً . . ﴾[4] ﴿ . . هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ . . ﴾ [5] .

أنظروا : « هنّ لباس لكم وأنت لباس لهنّ » بكلّ ما يُوحي به معنى اللباس من القرب والالتصاق والسّتر والدفء والزينة .

هكذا ينبغى أن تكون المرأة مع زوجهـا ،وهكذا ينبغى أن يكون الزوج مع امرأته .

هذا الذي نسمع عنه ليس من أخلاق الإسلام في شيء .

المرأة إنسان يجب أن يُرعى حقّه ، يجب أن تُؤنس المرأة وتُلاطف ، فالنبي ﷺ كان يمازح نساءه ، سابق عائشة مرتين : مّرة سبقته وهي صغيرة السّنّ ، خفيفة

---

(١) قال السخاوى : لم أره مرفوعاً . وانظر تعليقه في المقاصد الحسنة (رقم ٥٨٥) .

(٢) البقرة : ٢٣٣ .

(٣) رواه أحمد ، وأبو داود ، عن ابن عمر رضي الله عنهما . وقال المنذري : فيه رجل مجهول . أنظر (الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الأمانى : ١٦ / ١٦١) و (عون المعبـود شـرح سنن أبى داود : ٦ / ١١٩ برقم ٢٠٨١) .

(٤) الروم : ٢١ .

(٥) البقرة : ١٨٧ .

البدن ، فلمّا سمنت بعد ذلك سابقها فسبقها ، فقال لها ممازحاً : « هذه بتلك »[1] أى : مرّة بمرّة (تعادل) .

أنظروا إلى هذا القلب الكبير الذى لم تشغله هموم الدعوة والجهاد عن ملاطفة أهله ، هكذا ينبغى أن يكون المؤمن مع أهله ، ينبغي أن يكون لطيف المعشر ، وأن يكون إنساناً كريما .

فيا أيّها الإخوة المسلمون .. يا أيّها الأزواج الصالحون :

حاولوا أن تكونوا محمّديّين .. قرآنيّين ، مع أهليكم وأزواجكم .

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة .

اللهم فقّهنا في ديننا ، وعلّمنا ما ينفعنا ، وانفعنا بما علّمتنا ، وزدنا علما .

اللهم إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودُنيانا ، وأهلينا وأموالنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا ، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ، ونعوذ بعظمتك أن نُغتال من تحتنا .

اللهم أكرمنا ولا تُهنّا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وزدنا ولا تنقصنا ،وآثرنا ولا تُؤثر علينا ، وارض عنّا وأرضنا .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا ، واجعل غدنا خيراً من يومنا ، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلّها ، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللّهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا ، وأصلح فساد قلوبنا .

اللّهمّ انصر الإسلام وأعزّ المسلمين ، اللّهمّ اجعل كلمة الإسلام هي العليا ، واجعل كلمة الذين كفروا هي السُّفلى .

اللّهمّ عليك بأعدائك أعداء الإسلام حيثما كانوا ، اللّهمّ إنّا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم ، اللهم رُدّ عنّا كيدهم ، وفُلّ حدّهم ، وأذهب عن أرضك سلطانهم ، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين .

---

(١) رواه ابن ماجه فى سننه (١٩٧٩) عن عائشة ، وقال البوصيري في الزوائد : إسناده صحيح على شرط البخاري ، كما رواه النسائي فى عشرة النساء رقم (٥٦) ص (٩٠) .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ . . رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٢) ، اللهم آمين .

وصلّ اللهم على عبدك ونبيّك ورسولك محمدّ ، وعلى آله وصحبه : ﴿ إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وأقم الصلاة .

* * *

(١) آل عمران : ١٤٧ (٢) الحشر : ١٠ .

(٣) الأحزاب : ٥٦ .